ال خليفة

البحرين

حدودها : البحرين جزر في خليج العرب اهمها جزيرة مستطيلة وبضع جزر صغيرة منها واحدة الى الشرق هي المُحَرَّق واخرى الى الغرب هي البِدَيّع . وهذه الجزر قريبة من الخط الواحد والخمسين من العرض الشرقي ويشطرها الخط السادس والعشرون من الطول الشمالي .

مساحتها : اربعمئة وخمسون ميلا مربعاً .

عدد سكانها : مئتا الف نفس .

اهم مدنها : المَنامَة والمحرّق والرفاع والحد والبِديّع .

مذاهبها : السنة من المذاهب الاربعة ، والشيعة من الجعفريين والاسماعيليين ، ثم الوهابية . وفيها عدد كبير من الهندوس والفرس وبعض النصارى واليهود .



سمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وابنه

المقياس النسبي: انش ١ = ٤٨ ميل

شطط البحر

طريق

حدود الكويت

حدود الاحساء

عربستان الشمالية

العراق

عربستان الجنوبية

البصرة

الكويت

الخليج الفارسي

بلاد فارس

الاحساء

الرياض

قطر

رسم سعيد الصباغ سنة ١٩٢٤

درجة طول شرقي باعتبار لندن مبدأ طول

مقاطعة الاحساء

سلسلة من المدهشات

جهلي البحرين – قصور المنامة – الاشرعة والالوان– أسواق المنامة تجارها وتجارتها – النهضة الادبية – الرسالة الاميركية – المستشفى الاميركي – التبشير لا يفيد–حمير الحسا وأُتن البحرين – « ما السبب في جمالها ؟ . نطعمها السمك والتمر » – دبابة المستر فورد لا تستطيع ان تباري الحمير – ساعة الزجر هي ساعة التشمير – في مجلس الشيخ عيسى في المحرق – ذنبي في تناول القهوة – ذنبي في الحديث – في بيت الشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة شيخ الادباء والشعراء في البحرين – حدثنا الشيخ ابراهيم عن جمال الدين الافغاني ومجلة سركيس والمقتطف – اداب السلوك عند العرب – المأدبة والحفلة – كتاب من الشيخ ابراهيم – بعض اقوال الادباء – نهضة البحرين السياسية .

ما اخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطأي بالبحرين . وما دهشت في قطر من الاقطار التي زرتها دهشتي اول يوم في هذه الجزيرة ولا غرو فالجهل يجسم الدهشات . قال احد الاصدقاء في الحجاز ، وهو يصف لي الطريق الى نجد : ستسافر من بمباي الى البحرين ومنها في مركب شراعي الى العقير . فظننت البحرين جزيرة صغيرة حقيرة يأوي اليها الصيادون ، وظننت شيوخها من البدو الذين يسكنون الخيام . بل كنت عند وصولي اظنها معبراً الى الاحساء . وماذا ينفع التظاهر بالعلم اذا فضحتك اول كلمة منك بعد السلام ؟ اما واني امقت الادعاء فلا احاول اخفاء جهلي وهو جهل عام يكاد يشمل كل ادباء العرب . اني اعترف عني وعنهم .

اول ما يستلفت نظر الغريب عند وصوله الى البحرين، خصوصاً اذا كان قادماً من البحر الاحمر، عمرانُ مدينة المنامة وقصورها المشرفة على البحر ثم المراكب الشراعية « الجلابيت » التي تشق من مياه الخليج ازرقاق لا صفاء بعد صفائه. ولا حفيف ألطف من حفيف هواء الخليج وهو يداعب الشراع ويهمس في اذن الصباح كلمات الامان والترحيب. انه لينطبع في تلك الاونة من اللونين، لون الشراع ولون الماء، صورة في الذهن هي كلوحة السينما في تغيرها المستمر وحركتها الدائمة. ذلك لان مياه البحرين قلما تخلو من « الجلابيت » السارحة المارحة فيها على الدوام. اما البواخر فهي ترسو على اربعة او خمسة اميال من البر.

واذا ما السائح وطىء ارض الجزيرة وجال في اسواقها يستلفت نظره كذلك حركة تجارية لا ينبىء حتى ظاهرها بكل ما هناك. فهو يشاهد في المخازن من الملبوس والمأكول والمشروب ومن اسباب الزينة والترف ما يندر الا في المدن الكبيرة مثل بمباي والقاهرة. اما اذا دخل احد بيوتات التجارة فيستوقف نظره لاول وهلة الدفاتر الضخمة والكتاب. ها هنا ادارة ونظام، ودواوين يجلس عليها الزائرون لا الزبائن، فيشربون القهوة ويدخنون. هو الشرق في مظهريه القديم والحديث. وفي هذه البيوتات التجارية صناديق من حديد، واكياس من النقود، ذهباً وفضة، وبريد تراعى اوقات سفره وقدومه، وحسابات ومراسلات، وليس فيها شيء من البضاعة، وقلما يشاهد فيها غير حركة الكتاب وحركة الزائرين. اما السبب في ذلك فهو بعد ان تعلمه بسيط.

ان البحرين مثل الكويت محطة للتجارة بين الشرق والشطر الشرقي من شبه الجزيرة. ويصح ان يقال فيها من هذا القبيل انها سوق من

اسواق نجد ، لان قسماً كبيراً مما يدخل اليها من الهند وايران والعراق ومن اوروبا واميركا عن طريق الهند يباع في نجد . وانك لترى منه ايضاً في اسواق بريدة وعنيزة وحايل . بل يصل منه حتى الى اليمن وعسير والحجاز لان القوافل من تلك الاقطار العربية تجيء عن طرق نجران وقلعة بيشه والخرمه الى الرياض والاحساء . تجيء بين اليمن وحبوبه وتعود حاملة من البضائع مـــا يدخل الى نجد عن طريـق البحرين والكويت .

ولا نزال في سلسلة المدهشات . فـان في البحرين اذا كنت ممن يهمهم الادب والشعر ، نهضة ادبية اجتماعية مباركة . اجل ، ان في هذه الجزيرة من الادباء والشعراء عدداً ليس بقليل ، وذكاء ليس بضئيل . ان فيها نهضة تقارن اخواتها في الكويت وفي العراق ، وتقارن روحاً وطموحاً على الاقـل اخواتها في سوريا ومصر . فهذا ناديهـــا الادبي وفيه المجلات العربية اكثرها واحسنها ، وهذه غرف القراءة وفيها من الكتب الحديثة والقديمة انفسها ، وهذه المدرسة الابتدائية وفيها يُعلم بعض العلوم التي لا تزال تُعد في اليمن مثـلاً من بواعث الكفر والضلال وفيهـا من المعلمين المصري والعراقي والنجدي . ان البحرين ليست سوى معبراً الى نجد ! حبذا المعبر وما فيه من مدهشات الثقافة والعمران .

واليك بمزيد منها . است كما قد يعلم القارىء ممن يعجبون بالمرسلين ويستحسنون التبشير بالاديان . ولكن في البحرين معهداً اميركياً ديني الاصل طبي وتهذيبي العمل [1] وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس ،

(١) هو الرسالة العربية (The Arabian Mission) التابعة للكنيسة البروتستانية الهولندية في اميركا

ومدرسة كانت يوم زرت الجزيرة مقفلة ، ومستشفى وصيدلية يديرهما طبيب فاضل وبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويبثثن عملاً لا قولاً روح التهذيب والارتقاء في زيارتهن اسيرات الحجاب والحريم .

ولكن هذه الرسالة الاميركية المؤسسة في البحرين والكويت والبصرة تستطيع ان تضاعف خيرها وتعممه لو اقلعت عن التبشير وحصرت ما لديها من اسباب البر في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية ذلك لان المسلمين وخصوصاً العرب منهم راضون رضى عجيباً بدينهم ولا يرغبون في سواه بديلاً . واكثرهم لذلك يبتعدون عن المدارس التي يديرها المرسلون فلو فرضنا ان في مدرسة الكويت او البحرين،وهي تجعل من دروسها الكتاب المقدس، عشرين تلميذاً فان هذا العدد يزداد اضعافاً اذا الغي التعليم الديني او قرىء الكتاب المقدس في المدرسة كما يقرأ التاريخ . ان المرسلين انفسهم ليعلمون ذلك ، وهم في مدة خمسين سنة لم يتمكنوا من هداية خمسة من المسلمين فما الفائدة من التبشير اذن؟ حبذا مدارس اميركية لا مفزعات دينية فيها تهرّب المسلمين .

ومما ادهشني في اليوم الاول من اقامتي في البحرين — وليس فيما اقول غير الجد والاعجاب — تلك الاتن البيض التي تفوق حسناً ونشاطاً حمير الحساء . ومعلوم — ان حمير الحسا ملوك الحمير . واتُن البحرين اميرات الاتن . اما السبب في حسنها وسمنها وتدملك ربلاتها ، وفي نشاطها المقرون بالحكمة ، فهو ان اهل البحرين يطعمونها السمك ثم يفكّهونها بالتمر . وهوذا مخزن السمك . لا تبادر الى التصليح ، ايها الاستاذ ، فالساحه لا تفيد المعنى . انما المخزن بعينه اريد وكأنه

مخزن قمح او شعير ، ترى فيه السمك الصغير الذي يصنعون منه السردين في اوروبا مركوماً كركام الرمل . فهم يجففونه ويبيعونه مثل القمح او الشعير بالاكياس .

اما « دبابة » المستر فورد الاميركاني التي تزعج السياح حتى في البادية وفي اقصى زوايا الارض الموحشة ، فهي اليوم من الكمالات في البحرين . ولكنها غداً تصبح من المبتذلات المجلجلات شأنها في كل مكان . فيلحق شرها بتلك الاتن الطاهرة الجميلة . الا ان في البحرين صعوبات في السفر لا يصلح لها آلة او انسان . جاءني ذات يوم بعض الادباء يدعونني لزيارة الشيوخ في المحرّق [1] وكانت ساعة الجزر فلم نستطع الوصول الى الجلبوت الذي كان في البحر الا اذا اخترقنا السبخة حفاة وخضنا المياه حتى الركاب . فركبنا الاتن الى الجلبوت وشكرنا الله ان في هذا المضمار لا تباري « الدبابة » الحمار .

ليس كل من يبحرون من المنامة والمحرق او اليهما يركبون الاتن ساعة الزجر ، بل ان اكثرهم رجالاً ونساء ، وقد شمروا عن السيقان وعما فوقها في بعض الاحيان ، يخوضون المياه بين الشاطىء والجلابيت وهم يمزحون ويضحكون كأنهم يسبحون ويلعبون . لا اظن ان مشهداً من مشاهد الرقص في باريس او من مشاهد السباحة في مياه بيارتز في الصيف يضاهي في العري والبهاء هذا المشهد البحراني وقد رُفع ستاره للشمس والسماء . بيد ان مسرحه مسرح الفطرة والسذاجة ، فلا سبيل للهمس ، ولا باب لما ساء من الفكر والايماء . واغرب ما فيه ان النساء المحجبات يشمرن كالرجال . لم اتمالك

(١) في البحرين والكويت كما في نجد يطلقون اللفظة بالجمع على الحاكم .

مرة ان اظهرت دهشتي ، وبيدي آلة التصوير ، اذ رأيت احدى النسوة تنزل من الجلبوت الى المياه وقد شمرت بكرم فضاح ، فقال رفيقي : شيء مألوف . خذ صورتها ولا بأس، فصورت آية النشور ، اما الوجه فمحذور .

نزلنا في المحرّق وسرنا الى قصر الحاكم صاحب السمو الشيخ عيسى ابن علي آل خليفة ، فاذا في الزقاق الى اصل الحائط بعض الاعراب عاقدون الحبْوة ، واذا في الفناء الكبير جمهور آخر لا يقل عن المئة جالسون في مجالس من اللبن والحجر كل يحمل سيفه او عصاه، وقد خيم عليهم السكوت كأنهم الاصنام . مشيت في الفناء لا ادري أفي مجلس الحاكم انا ام في معبر آخر اليه . ولما وصلت الى وسط تلك الساحة الرهيبة وقف احد الجالسين في الصدر ، وهو شيخ صغير القامة ، قصير اللحية ، طاعن في السن ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ، فاجلسني في مجلس من الحجر الى يمينه . هو الشيخ عيسى بعينه . رحب بي ولامني لاني نزلت في المنامة ولم انزل في المحرّق ضيفاً عليه .

ثم امر بالقهوة فجاءت في ابريق من النحاس كبير جميل ، يحمله رجل اسود عمليق لابس معطفاً احمر مزركشاً بالقصب ، يتبعه ولد في ثوب رسمي كذلك يحمل الفناجين . وقف الاثنان امام سمو الشيخ وقوف الجندي امام القائد العام فسلما واليد على الرأس ، ثم اخذ صاحب الابريق فنجاناً من الولد فصب فيه وقدمه لمولاه ، ثم صب ثانية وقدم الفنجان للضيف فتناولته باليد اليسرى دون ان ادرك وقتئذ خطأي . لست ادري ما حل بي تلك الساعة فكنت في حديثي كما كنت في عملي متعثراً قل هي سلسلة من المدهشات ، وقد كنت هذه

المرة مصدرها لا موضوع تأثيرها .

دُهش الشيخ عيسى ولا ريب من فعلتي الاولى . وعندما شرعت احدثه امام ذاك الجمع الصامت الساكن في موضوع رحلتي نظر الي وفيه شيء اشد من الدهش . وما كدت اذكر امراء العرب وحاجتهم الى التعارف والتفاهم حتى وثب من المجلس ، فوقف الحضور كلهم مثله بغتة، وتقدم مني يشير ان اتبعه. مشيت وراءه يصحبنا بعض حاشيته وانا بينهم مثل مذنب يساق الى السجن . على ان سمو الشيخ ، عندما صرنا في الشارع ، التفت اليّ وقال : « هؤلاء العُربان لا يفهمون ، ونحن لا نتكلم في السياسة امامهم . نمشي الى البيت فنتحدث هناك » .

مشينا الى بيته الخاص فصعدنا الى غرفة فيه على السطح لا يدنو منها « العربان » ولا يصل اليها من الرقباء اذن او عين . وكان معنا حفيده الشيخ محمد بن عبدالله واخوان من الاسرة الشريفة . جلسنا وانا لا ازال الوم نفسي على ما بدا مني فقال سموه دون ان يُقصر اللطف في لهجته : تكلم الآن . فجمعت شتات الفكر وافضت في الموضوع وهو منصت يهز برأسه . ثم قال : العرب لا يتحدون . فقلت : وهل تلبون دعوة الملك حسين الى اجتماع يعقد في مكة من اجل البحث في شؤون العرب والاسلام ؟فاجاب قائلا :اذا لبى سلطان نجد الدعوة فنحن نلبيها .

وقفنا عند هذا الحد في السياسة ورحنا بعد ان ودعنا سموه نزور ابن عمه الشيخ ابراهيم بن محمد المشهور الذي حكم الجزيرة عدة سنين وكان له والانكليز مواقع سياسية انتهت بنفيه وبوفاته في المنفى . اما ابنه الشيخ ابراهيم فهو اشد ميلًا الى الادب والشعر منه

الى السياسة . بل هو شيخ الادباء والشعراء في البحرين ، ومن خيرة رجالها . تلقى العلم في الحجاز من كبار العلماء وله المام بجُل الفنون . هو رجل عصري في آرائه واحكامه ، يطالع المجلات العربية ، ويتبع الحركة الفكرية والثقافية في العالم ، ويسعى ، وهو الرئيس الثاني لمجلس المدارس ، في تمهيد السبيل في البحرين الى بعض خيرها .

حدثنا الشيخ ابراهيم في مجلســـه عن جمال الدين الافغاني الذي عرج مرة على البحرين قال : لم يكن في تلك الايام من يعرف لجمال الدين مقاماً ولا من يكترث به . حتى انه لم يجد في هذا البلد من يضيفه . هذا منذ ثلاثين سنة . اما اليوم فترانا نرحب بالعلم ورجاله . وان ادباء البحرين يفتخرون بزيارة الاديب اللبناني الذي قال فيه سركيس ...

ثم انتقل محدثي من مجلة سركيس الى مجلتي المقتطف والهلال ، فسرني ثناؤه على اصدقائي البعيدين كما سرني ما خصني به لانه خلو من المبالغة والمجاملة . وما كدت اقول لنفسي ما احلاه حتى جاءت القهوة وجـــاءت معها كلمة استفهام طيها التأنيب . قـــال الشيخ ابراهيم وانا امد يدي الى الساقي : وما السبب في تناولك فنجان القهوة في مجلس الشيوخ باليد اليسرى ؟ قد انتقدوا عليك ذلك . فقلت وانا صادق في عذري : ان في اليمنى وجعاً عصبياً يضطرني في بعض الاحيان الى استعمال اليسرى . فقال فضيلة الشيخ : عذر مقبول وسننشره في البلد دفاعاً عنك فقلت وعسى ان يُعلن العذر بسرعة اعلان الذنب . فضحك فضيلته ومن في المجلس .

قد يستغرب القارىء اهتمام عالم لمثل هذه الامور التافهة . ولكنها ليست بتافهة عند العرب ، فانهم على اختلاف طبقاتهم يواظبون على

آداب الجلوس في المجالس ، وعلى المائدة او الى السماط ، مواظبة الطبقة العالية من الاوروبيين . فترى البدوي في مضربه مثل الامير في قصره يحافظ على المقامات ويرعى حقوقها ، وعلى العادات والتقاليد ويحسن التمييز في ادق خصائصها .

اما امتناع الشيخ ابراهيم عن مشاركة ادباء البحرين في الحفلة التي اقاموها للاديب اللبناني فلا اظنه من هذا الباب . فلو كان المقام السبب في الاحجام لما ترأس الحفلة الشيخ محمد حفيد الشيخ عيسى ولما حضرها غيره من الاسرة الشريفة . انما الحقيقة هي ان الشبان الذين اقاموا الحفلة ارادوا ان تنحصر بهم فلم يدعوا لها الشيخ . وكنا قد اجتمعنا حلقة حول السماط في دار الشيخ ابراهيم العامرة كان هو فكرها اللامع ، فحدثنا في احوال البحرين وتاريخها حديثاً فيه لذة وفائدة . ثم شرفني بكلمة تفصح عن وطنية جلبابها الحكمة وتاجها العلم انقلها الى القارىء مثالا من نثره وفضله :

حضرة الاستاذ الكريم .

دعاني لكتابة هذه السطور ، والدواعي جمة ، ما يدعو المشتاق لبث اشواق ، والرفيق للتحدث مع رفاق . ومجال القول في الشؤون الانسانية واسع كل يأخذ فيه بحسب امياله ، ومقتضى حاله . واهم ما يتحدث به الاخوان وان تناءت بينهم الاوطان ، وهو ما يتواصون به من رفع شأن امتهم بين الامم وتنبيه اذهان خاصتهم الى مطالب عصرهم . واذا نظرنا الى ذلك بعين الاستحسان من وجه عام فلا شك اننا ننظر اليه بعين الوجوب من وجه خاص على من رزق من الاقتدار على الكتابة حظاً وافراً ، وتفرغ لها بعد ان خاض البحار والقفار ، وفاز بصحبته الكبار والصغار ، وحاز مزية الاختيار . وقدر له قبل

ذلك ان يعيش في العالمين القديم والحديث ، ويرى مظاهر الحياة من الفريقين . فلا ريب ان يكون لكلامه التأثير التام في بني امته . فعسى ان لا يحرم ابناء الامة العربية من اخيهم الامين ما يقوي نهضتهم من اختباراته الثمينة ونصائحه المفيدة . فالرائد لا يكذب اهله ، والفاضل لا يمنع فضله .

من المخلص

ابراهيم بن محمد آل خليفة

الرائد لا يكذب اهله . ما اجملها كلمة من شيخ ادباء البحرين . وقد ردد صداها الشبان نثرا ونظماً واضافوا اليها كلمات فيها من الحماسة والصراحة ما يجدر بالشباب . اني لا ازال اذكر من كلام الشيخ محمد رئيس النادي الادبي قوله : احمل سلامنا الى جميع اخواننا الناطقين بالضاد وبلغهم اننا قد اخذنا على عاتقنا السعي في تحقيق امنيتنا وهو رفع شأن امتنا عن طريق العلم .. واننا مستعدون لمصافحة كل من يمد يده الينا للتعارف والتواد والتعاون والتعاضد .

والشيخ محمد هو ابن الشيخ عبدالله كبير انجال امير البحرين ، كبيرهم عقلا ووطنية وعزماً ، فلا يخلو كلامه من اشارة سياسية .

ان بين ادباء تلك الجزيرة العربية الجميلة شاباً ورد ادبه بوساطة المجلات العربية في الغرب والشرق فاستقى من الموردين ، فصفت روحه واشتدت لهجته . هو عبدالله بن علي آل زايد ، سلك الكهرباء بين الادباء . وكأني به يكمل كلام الرئيس في خطبته تلك الليلة اذ قال :

— قل للغربيين انك زرت مصر والحجاز واليمن والعراق ونجد والبحرين فرأيت في هاته الامصار شعوباً نفضت عنها غبار الكسل

واستعدت للعمل ، شعوباً تتوق الى مصافحتكم وانتم الاصدقاء والى مصادقتكم وانتم الزملاء . ولكنهـــا لا ترضى بحال من الاحوال ان تكونوا لها بمثابة السادة ... قل لهم ان الشعب العربي هو استاذكم الاول ، ومعلمكم القديم ، فـــلا تقابـلوا الاحسان بالاساءة وتجعلوا ثواب ارشاده اطالة استعباده ... قوموا لهم بمقام الناصح المحرر ، لا الجبار المسيطر . دعوا الزمان الذي كيفكم يكيفهم والعوامـل التي اعدتكم تعدهم ..

هذا من عبدالله بن علي نثر فيه صراحة ، فيه حقيقة ، وقد عم ذلك كله بقصيدة جاء فيها وهو يصف اهل الشرق :

غنيهـم بخيل والمداوي عليل والاجانب اولياء

نعم غنيهم بخيل في المشاريع العامة الثقافية والصحيـة ، والمداوي عليل بما في خرجه من عقاقير الخزعبلات والتقاليد السقيمة . فاذا مـا اصبح الغني في ما ذكرت كريمـــاً ، والمداوي سليماً من سموم الخرافات ، فتيقن يا اخي عبدالله بن علي بان الاجانب يصبحون اصدقاء وزملاء .

في البحرين كما رأيت نهضة سياسية هي قرينة النهضة الادبية . اجل ، ان في البحرين من ينشدون الوحدة العربيـة ، وفي نادي البحرين من يرفعون النهضتين الى مستوى الفلسفة العالي ، ومستوى الانسانيـــة الاعلى . فقد سمعت ايضاً تلك الليلة اديب من ادباء الفرس ، والفرس مهد الفلسفة والحرية الروحية ، يذكر الشاعرين الصنوين عمر الخيام وابي العلاء المعري . قـــال محمد صالح الخـانجي ، اني احب المعري والخيام واني شغف باشعارهما . وقد سرني بنوع خاص مـا بلغني من ميلك اليهما وغرامك بافكارهمـــا ... ان البشر لم يزالوا كما كانوا

ما سلف من الزمان و كما وصفهم المعري والخيام ... ان الاديان الحنيفة روحها واحد وانما تختلف الشرائع التي تتضمن احكام المرافعات وفصل الخصومات ... فالاديان بروحهـــا ومغزاها تدعو للاجتماع والاتحاد ... الشرقيون كلهم عائلة واحدة ... خلاصهم وسعادتهم في ان يسود النظام بينهم والوفاق والتضامن .

مرحى ، مرحى .

ها قد اطلعت القارىء بالقرائن والامثال على بعض مـــا سمعت في البحرين – ولهذه اسباب تاريخية وطبيعية سيجيء ذكرهـــا – وسأعرض كذلك لاسباب الشكوى والانـــين في اصوات الادب والشعر .

مهد الحضارة والشراع

اصل الفينيقيين – شهادة التاريخ – مدافن البحرين – آثار فينيقية – قائد من قواد الاسكندر يزور بلداً فينقيا في خليج العجم – صور وجبيل هناك – العرب والفينيقيون من اصل واحد – « عشاق اليم واسياد الشراع » – التجارة الجديدة – لؤلؤ البحرين – كمية ما يستخرج من الخليج – ما هي اللؤلؤة – كيف تنشأ في المحار – رأي العلماء ورأي القزويني – الغوص والغيص – اصطلاحات هذه الحرفة كيف يقسم مجموع اللؤلؤ بعد الغوص – تجار اللوءلوء – اخطار الغوص – الدول – السبب في حسن لؤلؤ البحرين – عجائب الطبيعة وعجائب القزويني – الماء العذب تحت الماء المالح – تحدر الارض من نجد الى الاحساء – اهل البحرين يشربون من مياه العارض واليمامة .

قال بعض المؤرخين ان خليج العجم هو مهد الحضارة بل مهد الجنس البشري وان سكانه الاقدمين اي سكان الجزر فيه هم اول من رفعوا شراعاً في البحار ، واقتحموا اخطار الاسفار ، فمارسوا الملاحة واتقنوا علمها ، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب . وقال آخر من ان الفينيقيين هم من هـذه الديار العربية . فقد جـاء في بعض كتابات المصريين القديمة ذكر البُنْط Pount وهم اسم الفينيقيين قبل ان يحتلوا بلاد الشام . « والظاهر انهم من اصل عربي فقد نقلت التقاليد القديمة انهم ظعنوا من الديار المجاورة لخليج فارس الى سواحل البحر المتوسط » (١)

وجاء في التاريخ القديم تأليف رولنسون الانكليزي الذي يسند كلامه إلى اصح الثقات مثل هيرودوط واسترابون : ان اقدم الدول

(١) لغة العرب الجزء الثاني

الاسيوية تأسست عند فم الخليج [١] فضلاً عن الاثوريين الذين يقولون ان القرنة اي البلدة الكائنة عند ملتقى دجلة والفرات اليوم هي المكان السعيد العالي الذي سقط منه الابوان الكريمان — هي جنة عدن ، او كانت . ولا تزال شجرة الخير والشر قائمة فيها — ومثمرة — حتى اليوم .

ان علماء التاريخ وعلماء الآثار اذن متفقون مع الانبياء . على انه مهما كان امر الاساطير ومداها من الحقائق الطبيعية والتاريخية ، فمن المعقول ان الفينيقيين ، وهم من الشعوب الشرقية السامية ومن رجال البحار الاولين ، نشأوا في جوار الخليج او فيه ، وكانت اسفارهم في البداءة بين الهند والشام ومصر ، ثم ظعنوا الى سواحل سوريا وخاضوا البحر المتوسط ، فوصلوا الى قادش وبلاد الغال ، واصبحوا في تلك الايام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الاقصى .

ومما قاله رولنسون انهم كانوا يسافرون من ارواد ببلوس براً الى الخليج العجمي فيبحرون منه الى الهند وسيلان ، ثم يعودون وهم يحملون الذهب من اوفير [٢] كأنهم بعد ظعنهم غرباً الى سوريا كانوا يعودون الى بلاد هي بلادهم وقد توارثوا علومها مع علم الملاحة بعضهم عن بعض . ولا عجب اذا كان الخليج وجواره منشأ الفينيقيين ومطلع انوار المدنية الاولى ، فان ابناء هذه الربوع هم الذين مصروا

---

(١) موجز التاريخ القديم تأليف جورج رولنسون Ancient History by George Rawlinson

(٢) اوفير هي البلاد الشرقية التي اشتهرت قديماً بكثرة نضارها . وقد اختلف المؤرخون في موقعها فمنهم من قال انها كانت على الشاطيء الهندي قبال عمان ومنهم من قال انها في افريقية الشرقية .

ارض الكلدانيين وشيدوا قصور بابل وآشور .

من المؤرخين من يقول ان الصينيين كذلك نشأوا في جوار الخليج وظعنوا شرقاً الى البلاد التي هي اليوم بلادهم . ولكننا وان عدنا مع علماء التاريخ خمسة آلاف سنة فلا يلزم ، وموضوعنا البحرين ، ان نعود الى الاساطير قبل ذاك العهد او بعده . ان في جزيرة البحرين نفسها ما يثبت رأي رولنسون ، وهرودوط واسترابون ، في اصل الفينيقيين . ان في الجزيرة اثراً تاريخياً لم يُكشف بعد كل سره .

ركبنا ذات يوم السيارة وسرنا من المنامة جنوباً فمررنا بارض ظليل نخيلها ظليل ومياهها الجارية في القُنى غزيرة ، ثم بخرائب قديمة عربية ، ثم بغابات وآكام افضت بنا الى ارض تقفر تارة وطوراً تزدهي اخضراراً ، حتى اذا اجتزنا بضعة اميال وصلنا الى قرية علي . فانكشف امامنا مشهد غريب خصوصاً وهو في جزيرة صغيرة مجهولة كالبحرين تلال او اطلال تظنها لاول وهلة آثار مدينة قديمة . ولكنها آكام هرمية اصطناعية قائمة في سهل فسيح بل في قفر سبسب بين المنامة والرفاع يدعى المراقيب .

هي مدافن البحرين وقد نبت فيها العوسج والقيصوم . هي مدينة الاموات في كف الزمان ، وفيها احياء كالمدينة متفرقة متعددة . وفي كل حي مئات من القبور . مدينة دارسة لا يعرف لها تاريخ . كأن سكانها خلقوا وماتوا قبل ان يستكشف الانسان للقراءة سلماً وللكتابة مسماراً .

صعدنا الى رأس اكمة علوها زُهاء خمسين قدماً ثم نزلنا الى جهة منها فيها اثر البناء – باب كبير وعضادة ونصف عضادة وعتبة امست أسكفة تحت الاقدام . دخلنا فاذا نحن في بيت فيه غرفتان بنيتا

بالحجارة الضخمة الواحدة فوق الاخرى . ويظهر ان الاموات كانوا يدفنون في هذه الغرف واقفين او جالسين . او ان هذه القبور العالية كانت لامراء الجزيرة واعيانها . هي تختلف علواً ولكنها لا تنقص عن الثلاثين قدماً . ولا تزيد على الخمسين . ولكن شكل الغرف والمعابر فيها واحد لا يتغير وكلها في جوار قرية علي . اما المقبرة الفسيحة الارجاء ، المقبرة العامة على ما اظن ، فهي تمتد بعيداً في جهتي الشرق والجنوب ، وفيها ما يزيد على الستة الاف قبر يراوح علوها بين الخمس الاقدام والعشر . هي من اكبر مدافن الشرق ولا يبعد ان تكون أقدمها عهداً .

ومع ذلك لم يهتم بها علماء الاثار والتاريخ اهتمامهم بغيرها . وقد يكون السبب في ذلك خمول ذكر الجزيرة عند عامة الناس وبعدها عن جادات السياح المألوفة بيد ان رجلًا انكليزياً اسمه دوران [١] جاء الى البحرين سنة ١٨٧٩ م وكان اول من فتح مدفناً من تلك المدافن على ما اعلم وباشر الحفر والتنقيب ، فوجد هناك مع عظام الانسان قطعاً من عظام الخيل ، وشقفاً من الفخار ، وآنية من العاج ، وسُجُفاً وستائر بالية ، واخشاباً ناخرة من السوس والديدان . الا انه لم يذكر انه عثر على كتابة او صورة محفورة في تلك القبور .

ثم جاء في سنة ١٨٨٩ سائح انكليزي اخر هو تيودور بنت [٢] وامعن في التحري والتنقيب ، فعثر على اثار صناعية بعث بشيء منها الى المتحف البريطاني ، فدرستها لجنة المتحف وقالت انها فينيقية الاصل فاثبتت في ذلك رأي المؤرخ رولنسون الذي مرّ ذكره ، واثبتت ضمناً ان هذه القبور قديمة جداً لان هجرة الفينيقيين من هذه الجزيرة الى

---

(١) Capt. Durand (٢) Theodore Bent

البحر المتوسط هو منذ خمسة الاف سنة كما يرتئي المؤرخ رولنسون ان هناك دليلاً اخر على قدم عهد هذه المدافن وهو ان لا اثر فيها ،على اهميتها ، للكتابة او للتصوير الرمزي .

ان في التاريخ القديم اشارة اخرى الى فينيقية البحرين . فقد كتب احد القواد المقدونيين عندما جاء الى خليج العجم من قبل الاسكندر مستقصياً طريق الهند انه زار مدينة فينيقية على الساحل الغربي من الخليج ، ثم جزيرة تدعى نيرين ، وهي على ما يظهر دارين العرب ، ولا تزال قربها اليوم اسكلة بحرية تدعى الجبيل . فضلاً عن ذلك ان على شاطىء عُمان الشرقي بلدة كبيرة اسمها صور ، سكانها عشرة آلاف واكثرهم نوتيون ، لديهم مئة سفينة كبيرة والفان من السفن الصغيرة تسافر الى الهند والبصرة وبورت سعيد . وصور هذه من المدن القديمة ، وقد كانت في الماضي ، مثل صور الشهيرة على البحر المتوسط ، محطة تجارية بين الهند وبلاد بابل .

هاك ادلة التاريخ والاثار والديار التي لا تزال عامرة على ان الفينيقيين ظعنوا من خليج العجم .بل من بلاد العرب الشرقية الى البحر المتوسط . واذا كان يريب القارىء شيء من ذلك فلا مجال على ما اظن للريب في احد امرين : اما ان الفينيقيين من اصل عربي ، وهم مثل العرب ساميون ، واما ان العرب من اصل فينيقي . فاذا صحت رواية رولنسون رجحت القضية الاولى واذا صحت رواية قائد الاسكندر رجحت الثانية . اما اذا كان لا ريب في الروايتين فمنشأ الفينيقيين ومعاهدهم كلاهما في هذه الجزر وهذا الساحل العربي من الخليج .

ولا فرق عندي في كل حال اذا كان العرب الاصل او الفرع .

فاذا كانوا الاصل فمرحباً بالفينيقيين ابنائهم ، واذا كانوا الفرع فمرحباً بالمتحدرين من الفينيقيين . لست من الذين يتلذذون بتعليـــل النور ، وتحليل روائح البخور وانـ ما اتيقنـــه هو ان بين الشعبين العربي والفينيقي صلة جوهرية قد لا ترى ولكنها لا تنكر . بل هي ترى في سنة الوراثة وادلة الحياة في الحال . اليها اذن اعود بالقارىء .

ان اهل البحرين مثل اهل الكويت بل مثل كل العرب الساكنين على سواحل الخليج لا يزالون من عشاق اليم وســـادة الشراع بل هم اليوم الملاحون السائدون في الخليج وفي البحر الاحمر ، هذا اذا استثنينا السفن البخارية . اجل ، ان العرب اليوم مثل الفينيقيين قديماً قابضون اعلى زمام الملاحة ، رافعون فوق ساري الجد علم الشجاعة والاقدام . لا انهم اكتشفوا من مصادر الرزق والثروة غير نقل البضائع والمتاجرة في الامصار البعيدة . فقد اعتاضوا عن التنك والزجاج بالخفيف النفيس ، باثمن ما يستخرج من أعماق البحار .

لا اعرف من تاريخ اللؤلؤ غير شيء من حياته الطبيعية . امـــا اكتشافه وأول من تاجر به من الرجال ، وأول من خدع به امرأة ، وأول من تحلى به من النساء فتلك امور أجهلها . وقد يكونـ فاتني ما قاله الاثريون والمؤرخون والروائيـــون في اول من فتح صدفة واستخرج الدرة منها ، واول من صاغها واستغوى الغواني بها . قـــد جاء في التاريخ القديم ذكر ذهب اوفير ولم يذكر على حد علمي لؤلؤ خليج العجم الذي هو مهد الحضارة والشراع ومهد تلك الصدفة التي يكمن فيها المال والجمال .

ان اللؤلؤ مصدر الـثروة في البحرين واشهر مـــا اشتهرت به الجزيرة فقد قدر ما يخرج منها سنوياً بثلاثين مليون روبية اي مليونين

ليرة انكليزيه [1] وقد اجمع الاخصائيون ان مغاص البحرين هو اكبر مغاص في العالم مثلما اجمع الصاغة ان لؤلؤ البحرين يفوق صفاءً وحسناً سائر اللآلي . ولا بأس ، ونحن في الموضوع ، من الالمام بسيرة هذه المخلوقة العزيزة الغالية . وان ما اورده الآن هو من كتب العلم والخبراء لا من دواوين الشعر والشعراء .

اللؤلؤة بنت المحار ، بيتها الصدفة ، وبيت الصدفة البحر على الدوام لولا يد الانسان . اما المحار فعرب البحر الاحمر يقسمونه الى قسمين الصدف وهو الكبير الذي يندر اللؤلؤ فيه والبَلبيل اي صغير الصدف منبت اللآلي . فاذا ما استخرجوا الدرة من البلبيل يرمون بصدفتها ولكنهم يحتفظون بالصدف الكبير فيتجرون به . وقد قيل لي ان قيمة ما يصدّر من الصدف واللؤلؤ من البحر الاحمر لا يتجاوز المليون روبية لان مغاص اللؤلؤ فيه قليلة صغيرة .

اما قصة الصدفة فهاكها بالايجاز . هي في يوم الولادة تلقي بيضها الاصفر على وجه الارض في قعر البحر ، وهو مثل حب الخشخاش يتجمعُ حفناً فيتلوّن منه القعر . ثم تنشأ البيضة فتعدو كحبة العدس ، فينبت لها عروق خضراء براقة مائلة الى الازرقاق . تنمو حتى تصير كالانامل طولاً وهي دقيقة كالشعر ، شديدة كحبل من مسد وترسب عروق الصدفة فتثبت في مكان صلب من القعر . ومنها ما يطفو فيتحرك

---

(١) وقدّر ما يخرج من الكويت بقيمة ثمانية ملايين روبية ، ومن القطيف باربعة ملايين ، ومن الجبيل بستمئة الف روبية ، ومن عمان بخمسة عشر مليون ، ومن جزيرتي لنجه وقيس وهما قرب الساحل العجمي بمليون ونصف . قد يكون في هذه الارقام بعض المبالغة ولكنها لا تقل عن ثلاثة ارباع القيمة المذكورة . وقد اخبرني العارفون بان مغاص اللؤلؤ يمتد من دُبي في عمان الى رأس المشاب جنوبي الكويت وكله في الجانب الغربي اي العربي — من الخليج .

بحركة البحر ويتفرق بعضها عن بعض ، بل يظل يتدحرج حتى يلقى صخرة او شجرة او مكاناً صلباً من القعر تدق اوتادها فيه ، تمكن عروقها منه ، وهي لا تأخذ بالنمو الا بعد ان تنتهي من الدوران ، وتثبت في مكان . فتفتح اذ ذاك فمها اي صدفتها للغذاء وجله من الطين .

كأني بالقارىء يقول : وعدتنا بترجمة اللؤلؤة فجئتنا بقصة المحار على اني قلت ان اللؤلؤة بنت المحار ، وفي القول من الشعر اكثر ما فيه من العلم ، اما الحقيقة العارية الباردة المؤلمة فهي ان اللؤلؤة بنت مرض يصيب المحار ، او بالحري نتيجة خلل يعتري نظام الافراز فيه والذي يظنه علماء الحيوان هو ان حبة رمل او بيضة او حشرة تدخل مع الغذاء فتتهيج منها اغشية المحارة فينتج عن ذلك افراز غير طبيعي يتكون منه كتلة كلسية لماعة هي اللؤلؤة (١) . فاذا جاءت الكتلة هذه متوسطة في اللحم كانت نفيسة ، واذا لامست او قاربت الصدف كانت رديئة .

وفي سبيل هذه الكتلة الكلسية يفادي الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبارواحهم . فاكثرهم يرعفون حينما يُرفعون الى وجه البحر ، ومنهم من يصابون بداء الرئة . ذلك لان الغوص يلزمه مع الجرأة والخفة نفس طويل . والنفس اذا طال تعبت الرئتان ، واذا طال

(١) اما رأي علماء العرب فقد قال القزويني في الجزء الاول من كتابه عجائب المخلوقات : ان الرياح وقت الربيع تحمل الى بحر فارس رشاشات من بحر اوقاس وفيه ماء شبيه بالزئبق لزج مثل الغراء فيتولد منه الدّر بان تقع تلك الرشاشات في محل الصدف فيلقمه الصدف كما يلقم الرحم المني . فربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد دراً كبيراً ، وربما تقع رشاشات فتنعقد منها اجزاء صغار كما ترى في اكثر الاصداف . هذا رأي القزويني وليس فيه شيء من العلم .

تحت المـــاء جاء فوق الامساك ضغط تتفجر منـه في بعض الناس الشرايين .

اما موسم الغوص فهو « من اول برج الثور الى اوائل برج الميزان »[١] كما يقول الشيخ النبهاني[٢] الذي يعود الى الافلاك مثل كل اعرابي ليحدد الازمنة . وقد اخبرنا في كتابه انه « اورد صفة الغوص » وان كانت معلومة لانه اطلع على رحلة ابن بطوطة فرآه يصف مغاص الجواهر بخلاف ما يشاهد في هذا الزمان .

السفن التي تستخدم اليـوم للغوص هي على نوعـــين السنبوك والجلبوت . امـــا في الماضي فقد كانت على شتى منها البغلة والبقّارة وكلها شراعية . واهل الغوص يعبرون عن مجموع السفن بالخشب ويسمون ابتداء الموسم الركبة وانتهاءه القفّال وهم يـــدعون اللؤلؤ قماشاً والجواهر دانات .

في البحرين يباشر صغار الغاصة العمل قبل ابتداء الموسم فيجيئون في فصل الشتاء الى ساحل البحر ويغوصون في عمق ذراع او يزيـد يلتقطون ما يجدونه من الصدف . وهؤلاء يُسمّون « المَجنّى » . فاذا ابحروا وغابوا يومين او ثلاثة يسمون « العزاب » لعزوبهم اي بعدهم عن المدينة وهناك صنف اخر هم « الخانجية » اي الذين يتجهزون لغيبة اسبوعين في الغوص أو ثلاثـــة اسابيع . ثم يتأهب اهل البحرين للغوص العـــام اذا مضى النصف الاول من برج الثور ، ويقفلون

---

(١) برج الثور وبرج الميزان يشتملان في دورتيهمـــا على الاشهر التي تعرف عندنا باشهر الربيع والصيف ،اي من الشهر الخامس حتى التاسع -من ايار الى ايلول .

(٢) قد قرأت في وصف الغوص مـا كتبه الشيخ خليفة بن محمد النبهان وهـو ينطبق على ما سمعته من الثقات فلخصت بعضه .

راجعين اذا دخل برج الميزان ، فيبيعون ما يغنمون من البحر ويتقاسمون .

لكل من يشتغل في الغوص اسم يعرف به . فيدعى كبير السفينة « ناخوذاه » والذي يغوص « الغيص » والذي يجر حبال الغيص « السيب » والمساعد لهم « الرظيف » ثم الخادم التلميذ هو « التباب ». هؤلاء والبحرية يخرجون في جلبوت مزود بالزاد والماء الى مكان من امكنة الغوص المعروفة التي يبعد ابعدها ثلاثين ميلاً عن البر ، ويتراوح العمق الذي يغوصون فيه بين ثلاثة ابواع واربعة عشر باعاً . يسيرون الى موارد الخطر والثروة وهم يغنون او يرددون بعض الايات انغاماً ساحرة . يسيرون في ظل الشراع مطمئنين ، واذا اشتدت الريح فيجاهدونها في سبيل الدر والحياة . — توكلنا على الله . . . صلّ على النبي . . .

ها هم في مكان الغوص ، وقد طوي الشراع ورسا الجلبوت . هات الحبال يا سيب . هات الحديد [1] يا رظيف . هات الديّين [2] يا تياب . وهوذا الغيص وقد وضع الفطام [3] في انفه ، والحديد في رجله ، والديين في عنقه ، ثم يمسك نفسه وقد حجب وجهه بكفيه ويطيح . توكلنا على الله ؟ صوت موجة تتقلقل فتتكون حلقات ، فتكبر ، فتتفكك ، فتتلاشى . راح تحتها الغيص يبغي الجواهر في

(١) وقد يكون حجراً او رصاصاً يتراوح وزنه بين الاثني عشر والخمسة عشر رطلاً يجعله الغيص في احدى رجليه ليسرع به الى قعر البحر .

(٢) الديّين زنبيل من حبال الليف مشبكاً مثل الغربال الا انه واسع الخروق .

(٣) الفطام مثل الملقط مصنوع من قرن الوعل او من عظم السلحفاة يجعله الغيص في انفه ليمنع النفس .

المحار .

وهو حالما يصل إلى القعر يفتح عينيه وينزع من رجله الحديد او الحجر فيرفعه السيب بالزّيبل [1] إلى السفينة . ومنهم من يلبس قفازاً من جلد ثم يشرع يمشي على يديه : ورجلاه مرفوعتان والجدا [2] بين ابهاميها ، وهو يلتقط الصدف ويضعها في الزنبيل . فاذا ضاق ذرعه او امتلأ زنبيله جذب الجدا اي حبل الزنبيل فيصيح السيب : نَبَر [3] بينا هو يسحب الحبل والغيص متمسك به . فاذا صار على وجه الماء نزع الفطام من انفه وتنفس ، ويأخذ السيب الزنبيل فيفرغه في وسط السفينة ويدفعه اليه فيعود الى الغوص . وهكذا الى ان ينتهي النهار . وهم يسمون المرة الواحدة من النزول والصعود « تبّه » وهي لا تقل عن الدقيقة ولا تزيد على الثلاث الدقائق اي مقدار ما يستطيع ان يستمر الغيص تحت المياه . بعد انتهاء الغوص كل يوم عند الغروب أو قبله يفلقون الصدف ويخرجون ما يجدونه من اللؤلؤ فيها . اما اذا فرغ زادهم او ماؤهم فيأتون الى البر ليتزودوا ويعودون الى العمل حتى انتهاء فصل الصيف .

الناخوذاه هو مدير العمل فيجمع اللؤلؤ كله ويتولى بيعه، فيأخذ من مجموع قيمته الخمس ويقسم الباقي بين رجاله بعد ان يحسم من قسمة كل واحد قيمة زاده ، فيعطي الغيص نصف قيمة الاربعة الاخماس ، والرظيف ثلثي الباقي ، والسيب الثلث الاخر . اما التيّاب فليس

---

(١) الزّيبل حبل مربوط به الحجر ومتصل بالسفينة .

(٢) الجدا حبل اخر مربوط به الزنبيل . والاثنان يتولاهما السيب .

(٣) « نَبَر » كلمة يرددونها عندما يجذب الغيص الحبل برجله طالباً من رفاقه بهذه الاشارة ان يرجعوه الى وجه الماء .

له غير اكله وفائدة التمرين على الغوص . هؤلاء هم الغاصة اي الذين يستخرجون اللؤلؤ بانفسهم وعلى حسابهم .

اما الذين يغوصون لحساب غيرهم فهم يستأجرون السفن ومنهم من يستدين المال . والذي يكري السفن ويقرض المال يأخذ خمسي قيمة اللؤلؤ الذي يجمعونه . وهم اي الغاصة يتقاسمون الثلاثة اخماس الباقية بحسب القاعدة التي مر ذكرها . اما اولئك الذين يكترون السفن فقط فلا يدفعون غير نصف خمس اللؤلؤ اجرة السفينة . الا ان الغالب في الطريقتين الاولى اي التي ينال بها صاحب السفن والمال خمسي قيمة اللؤلؤ المجموع .

وهناك تجار اللؤلؤ في البحرين . فهم يبيعون ما لديهم منه في الجزيرة الى تجار اوروبيين والى البنيان الذين يجيئونها في الموسم لهذه الغاية . او انهم يسافرون به الى بمباي فيبيعونه هناك . ومن هؤلاء التجار من يسمون « بالطواويش » وهم الذين يخرجون الى محل الغوص ويشترون من النواخذة بعض الجواهر ، فيدفعون ثمنها اما نقداً واما تمراً وزاداً . والنواخذة يفضلون الزاد في بعض الاحايين لانه يكفيهم مؤونة الرجوع الى البر للتموين .

قلت ان من الغواصين من يصابون بداء الرئتين واكثرهم حينما يخرجون من الغوص يرعفون . وقلما يهمهم ذلك . فهم لا يخافون الا من الدوّل عدوهم الاكبر . وما هو الدول ؟ عدت الى الدميري والقزويني فلم اعثر في بحر علومهما على الدول . ولا جاء ذكره عرضاً حتى في الكلام على اعجب المخلوقات . في كل حال اني ، وان ذكرت ما قاله القزويني في الصدف وتكوين الدر ، اميل الى سواه من الثقات وخصوصاً اذا كانوا من هذا الزمان . لذلك افسح للشيخ خليفة بن

محمد النبهاني الذي خبر الغوص بنفسه ورأى بأم عينه الدّول . قال وقاه الله شره :

الدول حيوان هلامي لا يهتدي في سيره لجهة ، وانما تقذفه الامواج على وجه البحر . هو بقدر الكف فاصغر ، مدور له خيوط طوال نحو ذراع فاطول ، كأنه حرير مشتبك . فاذا لامس هذا الحيوان جسم ابن آدم احرقه حرقاً مبرحاً . وربما اعاب الموضع الذي لامسه . ولو رفع هذا الحيوان من الماء واصابته حرارة الشمس مقدار خمس دقائق لذاب وتحلل ماءً ولم يبق له اثر ...

اهل الغوص يلبسون ثياباً ضيقة ملامسة للجسم اتقاء شره . ويوجد كذلك نوع اخر يسمى اللوَيْتي ، وهو مثل الدّول هلامي . ولكنه احمر اللون وضرره اخف من ذاك فاذا لامس الجسم احرقه بدون تبريح فيرم اللحم فيبقى اثره والمه نحو ساعتين . اما اذا سخن الجسم الملذوع على النار فالالم يزول منه .(١)

بقي ان اذكر السبب في تفوق لؤلؤ البحرين وهو من عجائب الطبيعة في هذه الجزيرة . قد اجمع العارفون بان الماء العذب يحسن اللؤلؤ ، فاستُنتج من ذلك ان المطر هو سبب ذاك الحسن ، وان الصدف يصعد الى وجه البحر ليشرب من ماء السماء . غير ان الحقيقة العلمية في التصاق المحار بالصخور قبل نموه تفسد هذا القول . ولو صح ان المطر هو سبب الحسن لكان لؤلؤ جزيرة سيلان ، لكثرة الامطار فيها ، أحسن ما في العالم . وقد فاتت هذه الحقيقة القزويني الذي نقل عن البحرانيين كلمة نصفها صحيح ونصفها خطأ . قال : ان صدف الدر لا يوجد الا في بحر تصب فيه الانهار العذبة . والحقيقة هي خلاف

---

(١) تاريخ البحرين .

ذلك . فلو قال ان احسن صدف الدر الخ لجاء بالصواب .

الماء العذب يحسن الدر ولكنه اذا صب في البحر فقد صفاته . اما الانهار فليس منها في البحرين ، وانما هناك ينابيع من المياه العذبة هي من عجائب الطبيعة : ينابيع وسط البحر تحت المياه المالحة . ومنها ما هو قريب من السواحل .

في البحرين نحو خمسة وعشرين نبعاً مشهوراً يبعد بعضها عشرين ميلاً عن البر ويعلوها البحر من الثلاثة الى السبعة ابواع . مياه عذبة تحت المياه المالحة تفور من الارض على الدوام . وتلك التي تقرب من الساحل تظهر ساعة الزجر للعيان فيستقي اهل المحلة منها . على ان البحارنة يغوصون للبعيدة العميقة كأنها اللؤلؤ فيملأون منها القرب بأن يجعلوا القربة أو الاناء فوق الفوارة الى ان يمتلىء . ومن هذه الينابيع التي يشرب منها أكثر أهل البحرين القريبين من السواحل تشرب كذلك المحار ، فتتحسن فيه تلك الكتلة الكلسية البراقة . هي السبب ولا مراء في جمال لؤلؤ الجزيرة ذاك الجمال الممتاز .

وأغرب من كل ذلك أن تلك المياه العذبة تصل الى سواحل القطيف والاحساء وتجيء البحرين من مرتفعات نجد ، من وراء الدهناء . فقد تتبع علماء الجغرافية الذين ساحوا في البلاد مجاري مياهها ومصب انهرها الغائرة . من المعلوم مثلاً ان الرياض تعلو عن البحر الف وثمانمئة قدم وإن جبال العارض هي فوق الرياض وهي كلسية تمتص جل ما يتبخر من المياه فيجري تحت الارض ويصب في وادي حنيفة . بل ان مياه العارض ووادي حنيفة تجتاز الدهناء والنفود فتصل الى الخليج .

قال المستر هوغارس[1] : لا شك ان قسماً من هـذه المياه (اي مياه العارض واليمامة) عملًا بتحدر الارض ترشح تحت ما يعترضها من ظهور الجبال فتجري خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحـل فتسقي واحات الاحساء والقطيف ، وتتكون منها الينابيع العذبة في مياه البحرين .

---

(١) في كتابه « التوغل في البلاد العربية» D . G . Hogarth , Penetration of Arabia .

البحرين

البحرين في قديم الزمان – بلاد عربية لم يبق منها غير الاسم – جزيرة صغيرة كبيرة – جوهرة في جيب الخليج – مركز للتجارة والحرب – سكان البحرين وسكان نجد – اربعمئة وخمسون نفساً في كل ميل مربع – مدن البحرين – المنامة ميناء الجزيرة – الرفاع مدينة الامراء – الصُخير حمى الصحة والسكينة – جبل الدخان ولا دخان فيه – البديع عقر الدواسر – جو وكان فيها قصور شامخة الى الجو – المحرق عاصمة البحرين - الحد وفيها السادة العلويون – غزارة المياه والابار – طريقة عبد الملك بن مروان في الاستيلاء والاستعمار – عليّ وعليهم يا رب – دواليب الهواء – البابان تحذو حذو المحار .

ان البلاد الواقعة على الساحل العربي الشرقي كله ، من البصرة الى عمان ، كانت تدعى في قديم الزمان البحرين ، وقد اطلق العرب الاسم عليها لانها على ما اظن على شاطئَ البحرين ، بحر عمان وبحر فارس ، وجعلوا عاصمتها َهجَر ، ثم خص هـذا الاسم بقسم منها بين القطَر والقطيف وهـو الاحساء لان الطامعين بالسيادة من امراء العرب تنازعوها فتقاسموها ، فاستمرت تتجزأ وتصغر حتى كاد الاسم يمسي بلا مسمى . ولكن الذين نزحوا الى اقرب الجزر الكبيرة من الساحل الشرقي ، او بالحري هربوا من الجور طالبين الاستقلال والاطمئنان احتفظوا بالاسم فاطلقوه عليها .

كانت قبلئذ تدعى أوال ، ذكرها ياقوت في معجم البلدان قال : انها جزيرة يحيط بها البحر في ناحية البحرين . وأوال صنم لبكر بن وائل واخيه تغلب ، فسميت الجزيرة باسمه لان بني وائـل مع عبد

قيس كانوا يسكنونها في ذلك الزمان .

وموضوعي الآن الجزيرة نفسهـــا الحاملة اسم تلك المقاطعة التي تكبرها مئة ضعف . هي جزيرة صغيرة ومـــع ذلك كبيرة . صغيرة في مساحتها التي لا تتجاوز الاربعمئة والخمسين ميلاً مربعاً ، كبيرة في غرائب تاريخها الطبيعي والسياسي . وهي على صغرهـــا عامرة بمئتي الف من العرب والاعاجم من الشرق والغرب . بيد انهـــا لا تزال عربية الاصل والحكم ، عربية اللغة والروح ، لان اكثر سكانهـــا من العرب الاصليين ، عرب نجد ، وفيهم من المذاهب الاسلاميـــة المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي والجعفري . امـــا الجعفريون فهم مثل الهنود ُيعدون من الاجانب لانهـــم ايرانيون او ايرانيو التبعة .

ليس بين مسقط والبصرة اجمل من مركز هذه الجزيرة . وليس اصلح منه للتجارة او للحرب . فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه ، كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطر والقطيف . او كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع علـم السلم والتجارة . بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج . فلا عجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الامم ذوات الصولة والعرفان . وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونهـــا من الهند وفارس ، ومحط رحال الطامعين بالسيادة على خليج العجم .

ان البحرين لمثل مدينة كبيرة في ازدحام سكانها . ولولا مـــوارد الثروة من اللؤلؤ فيها ، ولو لم يكن مجال التجارة فيها متسعاً ، لانتزح عنها نصف سكانها . اذ قلما تجد في العالم خارج المدن بقعة من الارض معدل سكانها اربعمئة وخمسون نفساً في كل ميل مربع . قابل بين البحرين

ونجد مثلاً فيظهر لك فارق بعيد بين الاثنين . في مملكة ابن سعود اليوم مليونان ونصف مليون من العرب على الاكثر [١] يعيشون في ارض مساحتها اربعمئة الف ميل مربع في الاقل[٢]. فيكون معدل سكان الميل الواحد المربع ستة انفس لا غير . ولكن نصف هؤلاء من البدو ، اي الرعاة واصحاب المواشي ، ونصف ارضهم من الرمال والمفاوز التي لا ماء فيها ولا كلأ . فالميل المربع قليل على اعرابي واحد مع عياله وانعامه ، كما ان الميل المربع في البحرين ، على كثرة مياهها وخصب تربتها ، قليل جداً على اربعمئة وخمسين من عباد الله لولا اللؤلؤ كما قلت ولولا اسواق نجد والحسا .

جاء في التاريخ ان هذه الجزيرة كانت عامرة بالسكان في قديم الزمان . فقد كان فيها ثلاثون مدينة ومعها ثلاثمئة من القرى . ولكنها، وهي دائماً مطمح الفاتحين والمستعمرين ، ابتُليت بما يتقدمهم ويرافقهم ويتبعهم من الفتن والحروب ، فتداعى قسم من عمرانها واضمحل ، ولم يبق فيها اليوم سوى ثماني مدن وبعض القرى التابعة لها . اما سكانها الذين لا يغوصون ولا يركبون لرزقهم البحار ، فهم يزرعون الارض. والذين لا يزرعون يتاجرون .

اكبر مدن البحرين المنامة [٣] وهي على الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة الكبيرة ، عدد سكانها اربعون الفاً من العرب والايرانيين والهنود والاوروبيين ، وفيهم المسلم والمسيحي واليهودي والفارسي والهندوسي. هي الميناء العام للبحرين ومركز احد قسمي حكومتها المزدوجة ، القسم البريطاني ؛ ومحور التجارة ، فيها بيت البريد والبرق

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٢٢ اما سنة ١٩٦٧ فالمملكة تعد سبع ملايين .

(٢) اصبحت المملكة اليوم ١٧٠٠٠٠٠ كيلو متراً مربعاً .

(٣) كانت تسمى المنعة فحرفها الاعاجم الذين استولوا عليها . ومن قائل انه كان فيها قصر لمنام احد ملوكها السابقين فسميت به .

والمحجر الصحي ، ومرفأ ومخازن كبيرة للجمرك امر ببنائها الشيخ عيسى آل خليفـة . وفيها ايضاً « قلعة الديوان » التي بناها احد ملوك فارس ، وكثير من البيوت الفخمة الهندسة والبنــاء : الا ان ارضها سبخة يفسد منها الهواء فتكثر فيها الحميات . وعلى مسافة نصف ساعة من المنامة غرباً بجنوب اثر تاريخي قائم في ساحة تدعى سوق الخميس لان هناك تقام كل اسبوع سوق للبيع والشراء . ذاك الاثر التاريخي هو من عهد عمر بن عبد العزيز الاموي ، وهو بقية مسجد قديم ومنارتين متقابلتين طول الواحدة نحو خمسين ذراعاً . وهناك بالقرب منه عين تسمى ابا زيدان وفي جوارها ما هو اهم من الاثار القديمة اي اثر ينابيع من البترول .

اذا سرنا شرقاً بجنوب من هذا المكان واجتزنا المراقيب : حيث مدافن البحرين القديمة التي مر ذكرها ، نصل بعد ساعة الى الرفاع ، مدينة الامراء السابقين من آل خليفة ، وفيها بقية قلعة قديمة تبدو في اساس القلعة الجديدة التي شيدها الشيخ سلمان بن احمد . وحول الرفاع رياض مشهورة اهمها الصُخير تكثر فيها العيون والآبار والنخيل وتقع على ربوة الى جانب الرفاع الغربي اسسها الشيخ حمد الحاكم الحالي ، وهي لطيفة الهواء ، عذبة الماء ، فسيحة الفناء . الصُخير هي حمى الشيخ حمد ، وحمى الصحة والسكينة .

من الصخير نشرف على جبل الدخان ، ولا دخان فيه اليوم لا لبركان ولا لانسان . هو جبل مستطيل : فيه غار كبير ، داخله بيت بقبقباب منحوتة كأنه من بناء الانسان ، وفي رأس الجبل برج قديم متهدم . واذا استمر السائح شرقاً من الرفاع يصل الى سُترة او كما يقول البحارنة « حالة سترة » . هم يسمون « حالة » كل قرية يحيط بها

الماء فيجعلها شبه جزيرة وهي مقيظ الشيخ خالد اخي الشيخ حمد بن عيسى ، وفيها وفي القرى التابعة لها عيون كثيرة ونخيل وبساتين .

هذه من المدن والقرى في الجهة الشرقية . اما في الغربية فالبديّع قبالة الرفاع وعلى ساعتين من المنامة هي مسكن الدواسر وغيرهم من العرب الاشاوس . ومن قراها قرية جَو نزلها في قديم الزمان احد مشايخ العرب المشهورين بالهمة والاقدام يدعى الشيخ احمد رزق فعمرها وبنى فيها المساجد والبرك الكبيرة لحفظ المياه ، فقال احد المؤرخين فيه : سكن الشيخ رزق بلدة الجو ، وبنى قصوراً شامخة الى الجو . ثم ظعن ونزل الزُبارة في راس بر قطر . وكان في نيته ان يفصل هـذه البلدة عن قطر بخليج يحفره بينها وبين البر طوله ثلاثون ميلاً . ولكن قومه ، وهم من اهل البادية ، لم يرضوا بذلـك لاحتياجهم الى المفالي في بر قطر يجعلونها مرعى لانعامهم .

اما عاصمة البحرين الرسمية العربية اي المدينة التى يسكنها الشيوخ فهي المحرّق الكائنة في جزيرة صغيرة شرقي المنامة على مسافة نصف ساعة منها في الجلبوت . وهي تفضل المنامة بطيب هوائها لبعدهـا كما يزعم العرب هناك عن النخيل . فهم يظنون ان الاوبئة تكمن في ظلاله . والاصح انها تكمن في المستنقعات التي يسببها نقص او اهمال في ري النخيل . المحرق مركز النهضة الثقافية اليوم وفيها المدارس والنادي الادبي والشبان الغواة بالادب والعلم . وفي جزيرة المحرّق مدينة اخرى اسمها "الحد" يسكنها السادة العلويون وبعض آل ابن علي المشهورين في تاريخ البحرين . ويتبع كل من هاتين المدينتين خمس قرى يشرب اهلها من ينابيع البحر العذبة .

ان الماء القراح غزير في البحرين لو انهم يحفرون له الابار والقني فيجمعونه في عيون يستقي منها الجميع . اما اليوم فالينابيع كلها هي قرب البحر لذلك يقصدها سكان المدن في الصيف فيقيمون حولها بيوتاً من جريد النخل موقتة يتفننون في بنائها لتقيهم حر الشمس ولا تمنع عنهم الهواء . وقد قيل ان مياه هذه الجزيرة مهما ردم من ابارها تزيد على ما يلزم ارضها ويحتاج اليه سكانها .

نعم ، قد ردم في الماضي كثير من ابارها . والقصة كما يرويها العارفون من اهل البحرين وبعض المؤرخين هي ان عبد الملك بن مروان الاموي لما رأى من اهل الجزيرة بطراً في غناهم وتمرداً على خلفاء بني امية ، امر بردم العيون ليقل زرعهم واموالهم فيفتقروا ويخضعوا للامراء . هو مثال مما دونه التاريخ من اساليب الحماقة في الحكم . وان من يقارن بينه وبين سياسة الامويين في الاندلس ، وما أوجدوه واتقنوه من اسباب الزراعة هناك ، يستغرب جداً هذا الامر ويكاد ينكره . على اني شاهدت في رحلتي ما يثبت ان العرب في احقادهم وثاراتهم وحروبهم ينكلون مثل هذا التنكيل بأعدائهم وبأنفسهم . قد رايت عيوناً في نجد كانت سبب الشقاق بين القبائل ، فلما استولت عليها قبيلة دمرتها وردمتها لكي لا يشرب منها العدو إذا خرجت بعدئذ من حوزتها . عليّ وعليهم يا رب .

ومع ذلك فالجزيرة لا تزال غزيرة المياه كثيرة النخيل والبساتين . فيها من انواع التمر مئة نوع ويزيد . وقد شاهدت في الجزيرة عدداً من دواليب الهواء مجلوبة من الولايات المتحدة ، فتضاعفت مياه البساتين التي يكثر فيها انواع الثمار كالليمون والموز والخوخ والكمثري

والعنب والرمان .

كأني بأهل البحرين ، وقد ادركوا الضرر الذي سيلحق بتجارة اللؤلؤ من الاختراع الياباني اي توليد اللؤلؤ بالطريقة الصناعية ، بادروا الى اميركا يستنجدونها بما عندها من أسباب الزراعة والري الحديثة . فاذا كانت اليابان تباري المحارة فتحط من قدرها ، فالبحارنة يشمرون عن ساعد الجد ليضاعفوا في الجزيرة مواردها الزراعية .

البحرين في التاريخ الاسلامي [1]

مستعمرة فارسية حاكمها وسكانها من العرب – النبي يبعث العلاء الحضرمي ليدعوهم للاسلام – عبد قيس ووائل وتميم يسلمون – الردّة – رجوع العلاء – خالد بن الوليد – تأديب اهل البحرين – فتح قطر وبلاد فارس – البحرين في حكم الامويين – في حكم العباسيين – صاحب الزنج – القرامطة – ابو طاهر في الكعبة – الاماره العيونية في البحرين – جنكيزخان وتيمورلنك – فسكو دي غاما والفونسو البوكركه – البرتقاليون في البحرين – الاتراك يخرجون البرتقاليين من البلاد العربية – الانكليز يساعدون الاتراك – الفرس في البحرين – مستعمرة فارسية – فساد الحكم الفارسي وتلاشيه – آخر عامل من عمال الشاه .

كانت البحرين ، اي البلاد التي على الساحل من البصرة الى عمان ، مستعمرة فارسية قبل الاسلام وفي السنين الاولى من البعثة النبوية . ولكن عمالها كانوا غالباً من امراء العرب ، وكان سكانها من المجوس واليهود والنصارى ومن عرب نجد واكثر هولاء من عبد قيس ووائل وتميم . وفي السنة الثامنة للهجرة ارسل النبي احد الصحابة العلاء الحضرمي ليدعو اهل هذه البلاد للاسلام او للجزية . كان المنذر ابن ساوي التميمي يحكمها يومئذ من قبل ملك الفرس ، فلم يتردد في الاختيار بين دين التوحيد والوثنية بل بين حكم قريش وحكم الاعاجم .

---

(١) قد اعتمدت في كتابة هذا الفصل والفصل الذي يليه على تاريخ البحرين تأليف الشيخ خليفة بن محمد النبهان المطبوع في مطبعة الاداب ببغداد سنة ١٣٣٢هـ .

جاء العلاء الحضرمي ، وقد كان من رجال الصحابة وصاحب كرامات ، يدعو المنذر واهل البحرين للاسلام ، ولكنه لم يتمكن من هدايتهم كلهم . قبل المنذر وعربانه الدعوة حباً بالجنة ورجاء التخلص من ملوك الفرس ، ورفضها الآخرون . فـتركهم العلاء في ضلالهم يعمهون بشرط ان يقاسموه غلاتهم من الحب والتمر . فقبلوا بذلك . وعاد الصحابي الحضرمي الى مكة يحمل الى النبي بشرى النصر المبين وكثيراً من الغنائم والاموال .

بيد ان اهل البحرين بعد موت النبي ارتدوا قائلين : لو كان نبياً لما مات . فجاءهم العلاء ثانية ومعه جيش من المسلمين ، فادّب اهل الردة وقتل كثيرين منهم ، ولكنه لم ينتصر كل النصر . فكتب الى ابي بكر يستمده ، فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد ، وهو يومئذ في اليامة ، ليتوجـه الى البحرين ينجد فيها العلاء . جاء خالد فزعاً ، كما يقول العرب حتى اليوم ، وكان قد فرّ كثيرون من اهل الردّة الى الجزيرة وتحصنوا فيها فأمر العلاء رجاله بالزحف عليها .

كان هذا الصحابي كما قلت صاحب كرامات مُجاب الدعوة . وهاك منها اثنتين . بينما كان رجاله يجتازون مفازة لا ماء فيها خلصهم من الموت عطشاً بان صلى ركعتين ثم قال : ياحليم ياعليم ياعلي ياعظيم اسقنا . فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت عليهم وامطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركائب . ثم جاؤوا السواحل فوصلوا الى الخليج فلم يجدوا سفناً فيه ، وكان المرتدون قد احرقوها ، فصلى العلاء ركعتين ثم قال : ياحليم ياعليم ياعلي ياعظيم أجزنا . واخذ بعنان فرسه وهو يقول : جوزوا باسم الله فمشى ومشى وراءه جيش عدده اربعة

الاف ، فلم يبتل لهم قدم ولا خف ولا حافر [١] .

بعد ان ادّب العلاء اهل البحرين وردهم الى الصراط المستقيم حمل على الزُبارة في قطَر وقتَل فيها المكَعْبر عامل كسرى ، ثم عاد الى البحرين فأمّر عليها، اجابة لطلب اهلها. ثم خاض عباب الخليج فوصل الى الشاطيء العجمي ودخل بلاد فارس فاتحاً. وبعد ذلك ولاه الخليفة عمر على البصرة بدلاً من عتبة بن غزوان ، وولى على البحرين عثمان ابن ابي العاص ثم الربيع بن زياد الحارثي . سافر العـــلاء صاحب الكرامات والفتوحات الى البصرة ، ولكن الله لم يشأ ان يصل اليها ، فاستدعاه اليه في الطريق وهو قريب منهـــا . فلبى العلاء الدعوة ولا يزال قبره معروفاً هناك .

دالت البحرين للخلفاء الراشدين ثم لبني امية الى زمان عبدالملك بن مروان ، ذاك الذي امر بردم عيون الجزيرة ليفقر اهلهـــا فيلينوا للامراء . ولكن عبد الملك لم يكن من المفلحين : فقد سبقه الى استثمار الفقر رجل يدعى ابا فُديك الخارجي ، فاستولى على الجزيرة سنة كاملة وكانت جنود ابن مروان قادمة اليها فدخلتها منتصرة وقتلت ابافديك وستة الاف من رجاله الخوارج ، فعادت اذ ذاك السيادة الى بني امية في الشاطئين العربي والعجمي من الخليج .

ولكنها لم تخلص من الاغتصابات . ففي سنة ١٠٥ هـ خرج على

---

(١) في رواية اخرى انهم اجتازوا الى دارين لا الى أوال . وكانت يومئـذ دارين جزيرة عامرة يؤمها عرب نجد للمسابلة .

ودارين لا تبعد كثيراً عن بر القطيف حتى انه يستطيع الناس ساعة الجزر ان يمشوا من البر اليها. فالرواية الصحيحة اذن وان كانت تنفي كرامة العلاء الحضرمي، هي انهم اجتازوا الى دارين لا الى اوال .

العامل الاموي في البحرين مسعود بن ابي زبيبة العبدي فتغلب عليه ونصّب الاشعث بن عبدالله الجارودي مكانه ، فحكم الجارودي الجزيرة تسع عشرة سنة . ثم عاد الامويون الكرة عليها ، فتم لهم الاستيلاء الذي لم يدم بعد ذلك طويـــلا ، لان دولتهم كانت قد بدأت تتقلص وتضمحل ، فصار العباسيون يحلون محلهـــم في البلدان والامصار ، فاحتل عقبة بن سليم البحرين من قبل ابي جعفر المنصور ، وظل عمال الخلفاء ببغداد يحكمون في الجزيرة والاحساء حتى سنة ٢٤٩ هـ عندما استولى عليها رجل يدعى صاحب الزنج [1] احد الانبياء الكاذبين .

كان صاحب الزنج شويعراً في بغداد يحوم مستجديـــاً على مجلس المنتصر بن المتوكل وحول حاشيته . ثم جاء البحرين وهو يدعي انه من السادة العلويين فدعا القوم لطاعته فتبعه اناس وخالفه آخرون ، فأدى الخلاف الى التحزب فالقتال . وكان اصحاب البحرين اول من آمنوا به ، فرفعوه الى مقام النبوءة ، وجمعوا له الخراج ، وقاتلوا من اجله الاعداء ، وقد قضى صاحب الزنج فترة في البادية اقتداء بالانبياء يستنزل على نفسه الوحي ، فأوتي في تلك الايام – وهو الشاهد على ذلك – آيات من ايات النبوءة ظاهرة ، فطفق يسب الخلفاء الراشدين ومعهم عائشة والزبير . كأن النبوءة تبدأ بالمسبات !

قـــال ابن الاثير وابن خلدون ان صاحب الزنج كان يرى رأي الخوارج . وقد دُعي بهذا الاسم لانه في بادىء امره كان يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون في نواحي البصرة فيعدِهم بالعتق في الدنيا وبالجنة في الآخرة . بل كان يستغويهم بشيء من الجنة سلفاً . قيل انه كان يأمر بالقبض على النساء من ولد الحسن والحسين والعباس ويبيعهن

(١) هو علي بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد قيس .

في عسكره بيع الاماء والامتعة بدرهمين وثلاثة، فيشتري الزنجي عدداً من الشريفات ببضعة دراهم .

لا عجب اذن في تلبيتهم دعوتـــه للجهاد، فطفق يشن الغارات الواحدة تلو الاخرى وله في اكثرها الغلبة والغنائم . وفي سنة ٢٥٥ ﻫ ادعى صاحب الزنج النبوءة وكتب على رايته الاية : ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة، وراح وزنوجه يسلبون وينهبون باسم الله . ان الغريب في حكم اولئك العباسيين ان مثل هذا الطاغية يثبت اربع عشرة سنة في طغيانـــه، فحكم في هجر اليوم وفي البصرة غداً وتارة في الاحساء وطوراً في البحرين : فاراً، كاراً، صائلاً طائلاً، قبل ان يتمكنوا منه فيقتلوه .

قال احد المؤرخين، وهم يبالغون في الكلام على حروب صاحب الزنج، انه قتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمئة الف شخص! ولم يقتل في اكبر مواقع الحرب العظمى هـــذا العدد او نصفه من الناس .

كأنه كتب لاهل البحرين مثلما كتب للعباسيين ان لا يدوم السلم والامن طويلاً في ملكهم السعيد . قُتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ ﻫ فتنفست بغداد الصعداء . ثم ظهر في سنة ٢٧٨ ﻫ ابو سعيد القرمطي . ويا لهول القرامطة .

جاء ابو سعيد حمدان من خوزستان الى العراق فنزل في الكوفة فمرض ذات يوم فساعده رجل يدعى كرميتة لحمرة في عينيه (اللفظة نبطية ومعناها حمرة العين) فلما شفي من مرضه سمي باسم ذلك الرجل، فخُفف الاسم بعدئذ فقيل قرمطة . وكان ابو سعيد قرمطة من الزاهدين المتقشفين ومن تلامذة عبدالله القداح الاهوازي والاسماعيلي الذي اسس

في يومه جمعية سرية باطنية من مقاصدها الظاهرة التوفيق بين العرب والعجم والتأليف بين الاديان كلها . اما مقاصدها السرية ، السياسية والدينية ، فقد ظهرت على يد القرامطة بافظع مظاهرها .

دعا ابو سعيد وهو في العراق الى امام من اهل البيت قيل انه محمد ابن اسمعيل بن جعفر الصادق ، وقيـــل انه محمد بن الحنفية . كان القرامطة بعدئذ يدعون تارة لهذا وطوراً لذاك ، وفي كلتا الدعوتين فتنة على العباسيين . بـــل ان حركة القرامطة ، اصلا وفعلاً ، هي حركة ايرانية دينية سياسية ضد الخلافة والعرب . وان مـا ارتكبه الخلفاء العباسيون من المظالم وما اعترى ملكهم من الضعف والفساد ، خصوصاً عهـــد المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر — القاب مملكة ! — ، كان ينفّر منهم الناس ويساعد كل من قام عليهم من الاعداء .

لذلك اجتمع على ابي سعيد خلق كثير وجلهم من البادية لانه خفف عنهم اثقال العبادة ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحاً ومساء ، واعفاهم من صوم رمضان . فأحب البدو ابا سعيد واكبروه وعظموه ، وقالوا انه الامام المنتظر بعينه . فنشأ مذهبه ينتشر انتشاراً عجيباً ، فاشفقت دار السلام على اربابها منه ، فجندت عليه الجنود ، فصدهـا بعربانه وحاربها في اماكن عديدة وهزمها . ثم راح السيف ينشر في البلدان الدنية والقصية ما تأصل في قلوب القرامطة من عقيدة فيها نفي العقائد كلها . فاشتدت حروبهم على الخلفاء وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين في عمان والحسا والقطيف والبحرين . امـا شمالاً فان جيوشهم اجتازت البادية والحماد فوصلت الى بعلبك ، ومنهم من غزا الحجاز واليمن .

وقد نظم الشاعر ابن مقرب العيوني تاريخهم فأشار في قصيدته الى ما كان من امرهم اولاً ودمارهم آخراً على يد جدوده . قال :

سل القرامط من شظّى جماجمهم
فلقاً وغادرهم بعد العُلى خدما
من بعد ان جل بالبحرين شأنهم
وأرجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها
ارض العراق وتغشى تارة أوما[1]
وحرقوا عبد قيس في منازلهم
وصيروا الغُرّ من ساداتها حُمما
وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا
شهر الصيام ونصّوا[2] منهم صُنما
وما بنو مسجداً لله نعرفه
بل كلما ادركوه قائماً هدما

وقال المؤرخ الانكليزي غُبن : ان القرامطة هم من اهم العوامل في سقوط الدولة العباسية . قد استمرت فتنتهم ستين سنة وتزيد وبلغ القتال بينهم وبين جيوش الخلفاء اشده في السنوات الوسطى منها اي منذ سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢م) الى ان دخلوا مكة بقيادة زعيمهم ابي طاهر سنة ٣١٧ هـ (٩٣٠) فكان في ذلك الفتح ختمة المجد وختمة الفظائع والهول .

---

(١) اسم بلدة من بلدان عمان .
(٢) اي نصبوا صنماً .

دخل ابو طاهر سليمان بن حسن القرمطي الى مكة بجيوشه راكبين خيلهم وأعملوا السيف بالحجاج ، فقتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها زهاء ثلاثين الف رجـــل والوفاً من النساء . ووقف ابو طاهر عند الكعبة وسيفه بيده وصفر لفرسه فبالت هنـاك ، ثم صعد على باب الكعبة وشرع يقول ، بينما كان رجاله يرمون رؤوس الشهداء في بئر زمزم :

أنا لله وبالله أنا يخلق الخلق وافنيهم أنا

بعد ذلـــك امر بقلع الحجر الاسود من محله فحمله القرامطة الى الحساء ، ولكنهم بعد اثنتين وعشرين سنة اعادوه الى مكة . اما ان الحجر الذي اعادوه هو ذاك الحجر بعينه فالله اعلم .

دخلتْ البحرين في حوزة القرامطة عهد المكتفي بن المعتضد وظلت في حوزتهم الى ان ضعف امرهم وبدات سيادتهـم تتلاشى . فقام لقتالهم عندئذ ثلاثة من العرب هم الامير عبدالله بن علي العيوني في الاحساء ، ويحيى بن العياش في القطيف ، وابو البهلول محمدالزجّاج في البحرين . ثم اقتتل هؤلاء على مـــا غنموا . وقد كان ابو البهلول ضامناً لخراج الجزيرة فعصى فيها فجهز عليه القرامطة جيشاً من عرب عبد قيس ، فبرز لهم بجيش من البحارنة فكسرهم في اول وقعة وطرد عمالهم من الجزيرة . ثم خطب له فيها بالامارة فـــاستقام امره بضع سنين ثم ظهر عليه زكريا بن العياش الذي استولى ابوه يحيى على القطيف .

وما عتم ان استولى زكريا على البحرين بعد ان كسر البهلول في وقعة شديدة ، فطمع بضم الاحساء ايضاً الى ملكه ، فخرج اليهـــا من القطيف فلاقاه في الطريق اميرها عبدالله بن علي آل ابراهيم العيوني

بجيش جرار فكسره في الوقعة الاولى وقتله في الثانية ، ثم استولى على القطيف والبحرين . وفي ذلك قال شاعرهم ابن مقرب .

وصار ملك ابن عياش وملك ابي الـ
بهلول مع ملكنا عقداً لنا نظما

تم النصر للامير عبدالله فأسس الامارة العيونية التي استمر حكمها في البحرين نحو مئتين وخمسين سنة . ثم انتزع العجم الحكم ثانية من العرب . وذلك ان احد ملوك فارس الزنجيين [1] الذين استولوا على المملكة بعد انقراض الدولة السلجوقية ، وهو ابو بكر بن سعد الزنجي ، حمل على العرب في جزيرة قيس فهزمهم واحتلها ، ثم اجتاز بجنوده البحر الى جزيرة البحرين ، فاخذها ، واستولى بعدها على الاحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج . واستمر حكم الزنجيين حتى بعد ان ظهر جنكيزخان فشابه القرامطة بمدة دولته — ستين سنة — وباهوالها .

وبعد مئة سنة من عهد المغول الاول جادت الليالي ، ليالي الدمار والبلاء ، بابنها الثاني تيمورلنك فكمل اعمال جده جنكيزخان الفظيعة واستولى على البحرين في ما استولى عليه من البلدان قبل دخوله بغداد . ثم خرجت الجزيرة بعد موته من حكم المغول ودخلت في حوزة شعب جاء من الغرب هذه المرة لا من الشرق ، شعب ينشد ولا شك التجارة ولكنه يسعى في طلبها سعي المعتمر لا المدمر .

فبينا كان المغول في الشرق حاملين على كل مظهر من مظاهر الحضارة والعمران ، يفتحون البلدان ويدمرونها ، ويذبحون العباد ، ويزرعون الويل والاحزان في كل مكان ، بينا كانت هذه الغيمة

(١) لا علاقة لهؤلاء بصاحب الزنج .

السوداء الكثيفة مخيمة على الشرق الادنى ، تحجب عنه النور ، وتفسد كل ما في الحياة من عوامل النشؤ والبر ، كان قد راش الفكر البشري في اوروبا فشرع يجول في سماء العلم والبحث والاكتشاف . وكانت الملاحة التي هي يد التجارة اليمنى اول ما انتفع بثمار الفكر والعلم فراحت ترفع علم الجد والاقدام وراء الاوقيانوس في البلدان القصية .

جاء زمن ابطال البحار . ومن اولئك الكشافين الربان البرتغالي فسكو دي غاما [1] الذي ابحر حول « رأس الرجاء الصالح » ومخر عباب الاوقيانوس الهندي فوصل الى سواحل تلك البلاد العجيبة الهند ، ضالة الامم الغربية ، وكان اول من اسس لدولته مُلكاً في الشرق وجاء بعده زميله الفونسو دالبوكركيه [2] فرفع علم دولته في مسقط ودخل المضيق ، مضيق هرموز ، فاستولى عليه وحصنه تحصيناً ، وتقدم في الخليج متفقداً الجزر والاساكل فيه وهو يبغي الوصول الى البصرة ، ليفتح طريقاً لمستعمرة بلاده في الهند وقد حاول سنة ١٥١٣ ان يحتل عدن فلم ينجح لكنه تقدم في اسطوله في البحر الاحمر واحتل جزيرة كمران قرب الحديدة ثم استولى البرتقاليون على جزيرة البحرين وعلى القطيف فحصنوهما كما حصنوا هرموز ومسقط الا انهم لم يستولوا على الاحساء لان العثمانيين كانوا قد سبقوهم اليها ، وبسطوا سيادتهم عليها ، فعدوها يومئذ جزءاً من اليمن الذي كانوا قد احتلوا بعض نواحيه .

---

(١) فسكو دي غاما Vasco de Gama ولد سنة ١٤٥٠ وتوفي سنة ١٥٢٤

(٢) الفونسو دالبوكركه Alfonso d'Albuquerque ولد سنة (١٤٥٣ وتوفي سنة ١٥١٥) .

آل خليفة شيوخ البحرين

كان خليج العجم في قديم الزمان كما هو اليوم مفتاح الطريق للتجارة بين الشرق والغرب . ولا تطمئن دولة غربية في الهند ولا يستقر امرها اذا لم تكن هي القابضة بيدها على هذا المفتاح . اما ان الخليج اسهل واصلح الطرق لتجارة الهند فغني عن البيان . هو اقل اخطاراً من البحر الهندي ، واقرب خطاً واسهل ، لانه في مأمن من العواصف والرياح . هو حصن اذا شئت وبابه مضيق هرموز حيث تكاد بلاد ايران تتصل ببلاد العرب . فضلاً عما في هذه الطريق من البلدان العامرة ، فمن سواحل الهند الى جزائر الخليج الى البصرة فبغداد فسوريا فمصر فاوروبا — هي طريق الكنوز .

ادرك ذلك اهل البرتقال قبل ان يدركه الانكليز . ولكن ابناء الجزر وان كانوا قد جاؤوا الى الهند بعد مئة سنة من مجيء فسكودي غاما ، فقد تغلبوا على البرتقاليين بعد جهاد طويل مستمر ، تخلله الجم من الحيف والتعسف ، فاخرجوهم كما اخرجوا الفرنسيس بعدهم من تلك البلاد .

اما حكم البرتقاليين في البحرين فلم يدم اكثر من اربعين سنة . يستدل على ذلك من كتابة على صخر في جزيرة صغيرة غربي المنامة تدعى جدا [١] اخذ البحارنة حجارة منها لتجديد قلعة عجاج التي كان قد شيدها البرتقاليون . وهذه القلعة جددت بعد ان جلا البرتقاليون عن البحرين .

---

(١) هذه صورة الكتابة التي على حجارة جبل جدا : نقل من هذه الجزيرة مئة الف حجر لتجديد قلعة البحرين على يد العبد فيروز في زمن وزارة جلال الدين شاه في شعبان سنة ٩٦٩ هـ و ١٨٦٨ م — تاريخ البحرين للشيخ خليفة ابن النبهان .

قال المؤرخ : شكا حاكم دلهي وهي عاصمة الهند الى العثمانيين ظلم البرتقال المسلمين وطلب منهم المساعدة فجهز لهم السلطان سليمان القانوني اسطولاً جاء به الى الهند فتحاربوا مع البرتقال حتى اخرجوهم منها ... ثم جاء الاسطول العثماني الى مسقط والبحرين واخرج من كان فيهما من البرتقال كذلك (١)

وقد كانت للانكليز في اخراجهم نهائياً من الهند يد قوية عاملة ، عاملة في سبيل شركة الهند الشرقية لا في سبيل العثمانيين .

اما جلاء البرتقاليين عن البحرين فالمؤلف يزيدنا علماً بذلك . قال حصل اختلاف شديد بين امراء جزيرة البحرين وكان اكثرهم من الشيعة فرفعوا شكواهم الى الشاه عباس الاول الصفوي وطلبوا منه الحماية لقربه منهم موضعاً ومذهباً .

فاجاب الشاه عباس طلبتهم وخلصهم من السيادة الغربية ولكنه بسط عليهم حمايته الشاهانية ، فعادت البحرين الى حوزة من حكموها مراراً في سالف الزمان والاوان ، عادت مستعمرة فارسية كما كانت يوم جاءها الصحابي العلاء الحضرمي يدعو اهلها للاسلام .

ولكن الحكم الفارسي في البحرين ، وقد تسرب اليه ما كان قد اعترى الملك في بلاد فارس من الخلل والفساد ، تخلله فترات من حكم

---

(١) بعد ان تغلب السلطان سليم على المماليك سنة ١٥١٧ م فكر في احتلال عدن ليجعلها مركزاً لحملة على البرتقاليين في الهند فجاء ابنه سليمان في سنة ١٥٣٨ باسطول كبير يحقق رغبة ابيه فاحتل عدن واقام حامية فيها . ولكن العرب قاموا بعدئذ على الترك فذبحوا حاميتها وسلموا البلد الى البرتقاليين ، فجاء الاسطول العثماني ثانية الى عدن فاخرج البرتقاليين منها واعاد الحكم العثماني فيها ، ثم استأنف السير الى الهند ليتم حملته على اهل البرتقال هناك .

العرب ، حتى ان آخر عامل عربي من عمالهم وهو الشيخ نصر آل مذكور استنجد حكومة ايران في حملته على آل خليفة في الزبارة فلم تنجده . وكانت الوقعة بينه وبينهم (سنة ١١٩٧ هـ ١٧٨٢ م) السبب في فراره الى بوشهر وفي دخولهم الى البحرين منتصرين .

آل خليفة

من الافلاج الى الكويت الى الزبارة – تجارة اللؤلؤ – آل خليفة في الزبارة – فتح البحرين – ظهور ابن سعود عبد العزيز الاول – سلطان مسقط – البحرين بين الاثنين – سلطان مسقط يستولي على البحرين – رجوع آل خليفة الى الزبارة ومفاوضتهم لابن سعود – النجدة من نجد – ابن عفيصان ينتصر ويؤمر نفسه–آل خليفة عند ابن سعود وآل خليفة عند سلطان مسقط – الرجوع الى البحرين واخراج ابن عفيصان منها – العدو في قطر – ابن عفيصان وأرْحَمَه حليفان – الحرب بين اسطول الحليفين واسطول البحرين – ارحمه وابن عفيصان ينجوان على لوحة من خشب – ارحمه وسلطان مسقط حليفان – الهجوم على البحرين – ارحمه ينكسر ثانية – ارحمه يعيد الكرة على البحرين – البطل الضرير – « بيدي لا بيد عمرو » الفتنة في بيت آل خليفة – حزب آل عبدالله وحزب آل سلمان – الشيخ محمد آل سلمان – آل عبدالله يستنجدون ابن سعود – الشيخ محمد ينتصر على اعدائه – اسطول البحرين وتدخل الانكليز – « احرقوا اسطولكم ونحن نحميكم » – النزاع بين الشيخ محمد واخيه علي – الفتنة – المدرعات الانكليزية في البحرين – نفي الاخوين – الشيخ عيسى بن علي .

كانت الزبارة[1] في الماضي من البلدان العربية العامرة ، تجارتها الكبرى اللؤلؤ ، وسكانها من آل ابن علي والجلاهمة ، وهم من عرب العتوب اي بني عِتبة ، وهؤلاء فصيلة من جمَيْلة ، وجميلة فخذ من عنزى . وكان آل خليفة ،وهم من اكبر عشائر بني عِتبة ، يسكنون بارض الهدّار من بلدان الافلاج بنجد . فنزح الشيخ خليفة

(١) بلدة على شاطيء قطر قبالة جزيرة البحرين .

واهله الى الكويت في اواخر القرن الحادي عشر للهجرة . وبعد وفاته هجر ابنه الشيخ محمد الكويت وجاء باهله الى الزبارة فنزلوا على ابناء عمهم الجلاهمة وآل ابن علي .

كان الشيخ محمد بن خليفة ورعاً تقياً ، حصيفاً حكيماً . جاء من الكويت مغلوباً على امره وظاهر قصـــده شراء اللؤلؤ . جاء يبغي التجارة لا السيادة فكان حظه من الاثنين وافراً . احبه اهل الزبارة لورعه وكرمه واصالة رأيه ، فرغبوا اليه والى قومه ان يقيموا بينهم ثم امروه عليهم .

وعندما توفي الشيخ محمد تاجر اللؤلؤ السياسي خلفه ابنه الشيـخ خليفة الذي لم يرث من ابيه غير شيء من التقوى مزجـه بشيء من الشعر . وقد حج سنة ١١٩٧ هـ . وتوفي في مكة ، فخلفه في الحكم اخوه الشيخ احمد . وهو يدعى الفاتح — احمد الفاتح الذي احترب واخر عامل من عمال الفرس في البحرين اي الشيخ نصر آل مذكور ، فغلبه واستولى على الجزيرة .

لما استقر حكم آل خليفة في الزبارة ، عـــاد اهلها الى الاتجار ، فكانوا يقصدون الى البحرين لشراء اللؤلؤ الذي كانوا يبيعونه في الهند . وكان البحارنة من اهل الشيعة وهم يومئذ يكرهون اهـــل السنة ويضمرون لهم العداء . فحدث ذات يوم خلاف بين الفريقـين افضى الى قتال قُتل فيه احد خدم آل خليفة ، فثأر له اهل الزبارة ، وحملوا على البحارنة فاستغاث هؤلاء بحاكمهم الشيخ نصر ، فاعد لهم اسطولاً من السفن مجهزة بالجنود وتولى بنفسه القيادة . ولما دنوا من الزبارة خرج عليهم اهلها بالسفن فحاربوهم وكسروهم شر كسرة ، فأقلعوا هاربين الى بوشهر . امـــا البحرين فكانت قد خلت من

الحامية ، فسار اليها الشيخ احمد بقومه واستولى عليهـا سنة ١١٩٧ هـ . ١٧٨٢ م وهي السنة التي توفي فيها اخوه الشاعر الورع في مكة . كانت تجارة اللؤلؤ من عوامل الفتح الاحمدي كما كانت سابقـاً من دواعي الفلاح في امارة ابيه الشيخ محمد على الزبارة .

اقام الشيخ احمد عاملاً من قبله على البحرين ، وعاد الى عاصمته في قطر . على انه لم يستمتع وقومه بثمار النصر غير بضع سنين . لان ابنه الشيخ سلمان الذي خلفه كان خواراً ضعيف الرأي والارادة . وكان قد نبغ في تلك الايام رجل في نجد فراح يكتسح البلدان والامصار ويستولي على القبائل الدانية والقاصية . هذا الرجل هو الامير عبد العزيز آل سعود امام الوهابيـــة الذي كان قد وصل بجيوشه الى الاحساء ،فخاف عرب الزبارةان يستولي عليهم، فظعنوا يتقدمهم الشيخ سلمان الى البحرين .

هربوا من الوهابية القاهرة ، من خطر البر ، فوقعوا في خطر ادهى واشد جاءهم من البحر يقوده ويدفعه السيد سلطان حاكم مسقط . وكأن السيد سلطان ادرك اعوجاجاً في حكم البحرين الجديد فجاء يقوّمه باسطوله وسيفه . فبادر اليه الشيخ سلمان موالياً لا معاديـاً ، لانه لم يرغب باكراه البحارنة على القتال . وكان قد اطلع ، كما يقول المؤرخ ، على بعض مكاتباتهم الى حاكم مسقط يرغّبونه في الاستيلاء على بلادهم . هذا من الشيخ سلمان انصاف في الحكم وعدل في الرعيـــة . الارادة للشعب ! ولكن الصلح الذي عقده والسيد سلطان والذي بموجبه قدم احد اخوانه رهينة الى حاكم مسقط الظافر ، لا يُعَد في عين عنزي وربيعة من شيم الرجال . وولّى السيد سلطان ابنه السيد سعيداً على البحرين وعاد بالرهينة والغنائم الى مسقط .

اما العتوب فعادوا الى الزبارة بذلهم وهم لا يزالون موكلين امرهم الى الشيخ سلمان . ولكنهم نهضوا لاسترجاع البحرين ، بعد ان توفي اخوه الرهينة في مسقط ، وشرعوا يفاوضون امير نجد بذلك . طلبوا منه المساعدة فاجاب طلبهم حباً وكرامة . ولم يدركوا ما كان قد ظهر وشاع من مقاصد الرجل القومية والدينية ، مع انه كان قـــد استولى يومئذ على الحرمين .

ابشروا يا عتوب ! هذا ابراهيم بن عفَيْصان احد قواد ابن سعود الاباسل جاء بجيوشه يسترجع ملككم — يسترجعه يابني عِتْبة ليضمه الى ملك اهل التوحيد وابن سعود . وكذلك كان . دخلت قوات الزبارة ونجد الى البحرين فضربوا السيد سعيداً فهزموه واخرجوه من الجزيرة .

وكان الكلام لابن عفيصان : البحارنـــة مشركون ولا يصلح المشركين الا اهل التوحيد . امـــا آل خليفة فاعفاهم القائد النجدي من الاصلاح ، فاعـــلًا او مفعولاً ، واذن لهم بالرجوع الى الزبارة . فعادوا ثانية مدحورين مغبونين ، وشرعوا يفكرون برفـــع امرهم الى حضرة الامام في الدرعية علّه يرسل من قبله من يؤدب ابن عفيصان ، او علّه في الاقل يأذن لهم بالرجوع الى البحرين وبينما هم يفكرون والشيخ سلمان صدرهم يفكر اكثر من الجميـــع ، اذ اقبلت عليهم سرية من سريات الفاتـــح الكبير فاستولت على الزبارة وامرت آل خليفة بالسفر الى نجد . وكان الامير سعود قـــد خلف وقتئذ اباه عبد العزيز .

سافر في سنة ١٢٢٤ هـ ثلاثة من آل خليفة ليقابلوا امام الوهابيـــة في الدرعية . فلما وصلوا اليها اكرم الامير سعود وفادتهم ولم يـــأذن

لغير اعيان الزبارة بالرجوع . اما آل خليفة فأنزلهم في القصر ضيوفاً عليه ، واسراء بين يديه .

فلا يستغرب رجوعهم الى السيد سعيد بن سلطان الرجل الذي اخرجوه من البحرين ، يستنجدونه هذه المرة ليخرجوا ابن عفيصان منها . وكان الشيخ عبد الرحمن بن راشد آل فضل رسول اخواله آل خليفة الى حاكم مسقط . ولكنه ، على عزمه ودهائه ، لم يظفر من السيد سعيد بغير المال عوناً . اخذ الشيخ عبد الرحمن المال وسافر الى بلاد فارس او بالحري الى قَرْس المقاطعة الجنوبية وفيها مستعمرة عربية من عرب النصور فألف منهم جيشاً — بالمال تقوم الحروب — وارسل الى اخواله يخبرهم بذلك ويطلب منهم ان يتأهبوا للهجوم . فجاء آل خليفة برجالهم من الزبارة واتحدوا مع ابن اختهم عبد الرحمن وجنوده فتواقعوا مع جيش ابن عفيصان وكسروه واخرجوه من الجزيرة . اقلع النجدي هارباً الى قطر ونزل هناك على رجل يدعى ارحَمَة بن جابر الجلاهمة .

بعد ان استولى عبد الرحمن آل فضل على البحرين ونقل آل خليفة اليها تبعهم قوم من العرب كثيرون ولما علم الامام سعود بخروج ابن عفيصان مهزوماً حاول استرجاع الجزيرة من الشيخ عبد الرحمن بوساطة احد اخواله الاسراء في الدرعية . فأرسل الشيخ عبدالله ابن احمد منهم يصحبه بعض رجاله ليستطلعوا خبر عبد الرحمن ويروا ما اذا كان استولى على البحرين لنفسه او ليعيد اليها سيادة آل خليفة . هي السذاجة في النوابغ وفي من لا يزالون على الفطرة الاولى .

لا نعلم ما اوصى به الامام سعود رجاله ، ولكن المؤرخ يقول انهم جاؤوا الى الشيخ عبد الرحمن بالخشن من الكلام . — كيف يجرأ

العيال ان يستولوا على البحرين وآباؤهم في قبضة الامام ؟ فقال الشيخ عبد الرحمن : دونكم العيال ، فانهم حاضرون فتقدم اذ ذاك الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان وقال : نحن اخذنا البحرين لانفسنا ولا حاجة لنا بآبائنا . وقد يئسنا منهم وسمينا باسمائهم [1] .

كفّر الولد الشجاع عن ضعف ابيـــه فاغضب رجال نجد ، فقالوا يهددون الشيخ عبد الرحمن : لو كان يمكن للخف والحـافر ان يطـأ البحرين لنثرناها حصاة حصاة . فاجابهم قائـلا : لو كان يمكن لقُبّيت الجابري [2] ان يطل على الدرعية لجعلنا عاليها اسفلها .

ولكن الاقدار بعثت على الدرعيّة بغير « قُبيت الجابري » ليهدّمها . ففي تلك السنة او بعدها بقليل جاء ابراهيم باشا المصري يحارب اهل نجد فشغل الامام ابن سعود عن الاجزاء الصغيرة مثل قطر والبحرين في ملكه المترامي الاطراف ، فاطلق سراح بني خليفة وتركهم وشأنهم ، فعادوا الى الجزيرة يتولون فيها زمام الاحكام .

لم يصفُ لهم الجو مع ذلك ، لان قطَر قريبة من البحرين ، وفي قطر ارحمة ، وعنده ابنُ عفيصان . وكان ارحمة بن جابر الجلاهمة عزيزاً في قومه جباراً عنيداً . فلم يدِنْ لآل خليفة ، بل كان يباريهم في السيادة ويسعى في انتزاع الامارة من ايديهم . ثم جاء ابن عفيصان يزيده غلًا ونفوراً فوُحدت النزعتان والثأران ، وكان يُنتظر من رجلَي قطَر مباشرة القتال . ولكن آل خليفة ، عندمـا استقر امرهم في البحرين ، جهزوا اسطولاً من السفن الشراعيـة وابحروا الى قطر . توكلنا على الله ! نحرقها ان شاء الله ! وكان ارحمة وابن عفيصان قد

---

(١) يقول العرب عندما يفقدون احداً من اهلهم : سمينا باسمه .

(٢) القبيت انف السفينة والجابري اسم سفينة عبد الرحمن .

علما بذلك فتأهبا للحرب . توكلنا على الله ! هي لنا ان شاء الله !

خيم الليل فاوقف الخليفيون سفنهم امام المكان المقيم فيه ارحمة وابن عفيصان وهو يدعى الخوَيِر . وكان ارحمة ملاّحاً ماهراً وقائداً خبيراً فلم تسره مناورة اسطول العدو اذ رأى انواره . — تعبئة هذه السفن يا ابراهيم تنبيء بوجود الشيخ عبدالله بن احمد فيها . فقال ابراهيم متهكماً : والشيخ عبدالله من المحبوسين في الدرعية . هات الدليل على نبوءتك يا ارحمة .

— تعبئتها تعبئة قائد خبير ، ولا يمكن ان يكون غير الشيخ عبدالله . ثم استدعى زورقاً واشعل فيه سراجاً وامر احد رجاله ان يقف به وراء السفن ، فلما رأى قائد الاسطول ذلك خشي ان يكون النور نور سفن ارحمة ، فأمر سفنه ان تقف وراءه دفعاً لهجوم يجعله محصوراً بين العدو والبلد . فلما رأى ارحمة ذلك تيقن ان الشيخ عبدالله قائد الاسطول واعجب بدهائه وبمقدرته الحربية .

لا تسرني هذه الحركة يا ابراهيم . هيا بنا الى البحر .

خرجوا بالسفن الى البحر ، وعند انبلاج الفجر تقابل الفريقان فادرك ارحمة ان من الحزم الا يقاتل القوم لان قوته لم تكن كافية . فاغتاظ ابن عفيصان عندما قال له ذلك وظنها جبانة منه ، فاوعز الى احد رجاله ان « يحورب » (1) .

لا خير في رجل يجر جريرته   واذا تضايق دربه خلاها (2)

فغضب ارحمة واعتزى قائلاً : لا بالله ما نخليها . ثم امر بنشر الشراع وبرز للقتال .

---

(1) حورب اي هزج وهي من اصطلاح اللبنانيين وعرب نجد .

(2) هذا من الشعر الذي يدعى في نجد بالنبطي اي العامي .

اشتبكت السفن بعضهـــا ببعض ، فتلاطمت الاشرعة ، وأنّت الاخشاب من الصدمات ، ولصقت سفينة ارحمة بسفينة راشد بن عبدالله فجاء ابوه يدعمه بسفينة من الجنب الآخر كيما يمنعه ساعة الخطر الاشد من الفرار . وكأني بارحمة وقد عاين الشيخ عبدالله يقول لابن عفيصان : اتبغي الدليل على نبؤتي ؟ خذه يا ابراهيم .

حمي الوطيس بين الجمعين ، فدوت البنادق بالرصاص ، وابرقت خلال الدخان السيوف ، وسالت الدماء من المراكب فخضبت الامواج ، واشتعلت النيران في الخشب والاشرعة ، فتطايرت منهـــا الشهب وتساقطت الشظايا الملتهبة . — تبغي الدليل على نبوءتي ؟ خذه يا ابن عفيصان . راحت القتلى تسابق الرصاص الى قعر البحر ، وفيهم راشد بن الشيخ عبدالله . ثم حجبت النيران والدخان سفينة أرحمة ، وقهقهت فوق عرشتها زبد الموج المخضب بدم الابطال ، فنجا سيد الجلاهمة وحليفه ابن عفيصان على لوحة من خشب . — هل رأيت حرب العتوب يا ابراهيم ؟ ولكن الهول أصمّ ابراهيم وعقل منه اللسان .

اما ارحمة فلم يكن ممن تسكتهم الهزيمة وتصمتهم الاهوال . لم يوفق في شركته وابن عفيصان الى مراده ، فسافر بعد تلك الوقعة الى مسقط يخطب ود حاكمها سعيد بن سلطان .

ـ آل خليفة اعداؤك يا سعيد واعدائي . كسروك مرة وكسروني ولست يا سعيد ممن ينامون على الضيم . لا بالله .

وحلف أرحمة بعز العُتوب ، وحلف سعيد برأس ابيه .

ثم ناصب صاحبُ مسقط الخليفيين العداء وذلك انـــه قبض ذات يوم على تجار من البحارنـــة كانوا يقصدون الهند ، وفيهم الشيخ عبد الرحمن آل فضل عدوه الاكبر ؛ فعرجـوا على مسقط فاعتقلهم في

برج القلعة . وكتب الى اهل البحرين يطلب منهم الطاعة والخراج . فأجابه الحاكم الشيخ سلمان ، وكانت منه حيلة من حيل السياسة والحرب : اننا بغنى عن هؤلاء وقد نسيناهم وسمينا باسمائهم .

اما السيد سعيد فكان قد تأهب للحرب فجاء باسطوله الى البحرين يصحبه أرحمة الجلاهمة، فنزلوا في سترة على شاطىء الجزيرة ، واقاموا هناك ثلاثة ايام فلم تظهر طلائع البحارنة . فتهكم سعيد قائلا : عتوبك غابوا — اي ماتوا — فغضب ارحمة لانه عتوبي ، وعندما ظهرت اعلامهم خلال النخيل في صباح اليوم التالي صاح قائلا : هم عتوبي ظهروا يا سعيد . توكل على الله .

ولم تكن ساعة بعد التحام الجيشين حتى اسفرت الوقعة عن هزيمة اهل مسقط وفرارهم الى البحر . فلما رجع السيد سعيد الى بلاده همّ بقتل تجار البحرين المعتقلين عنده . ولكن اخته موزة نهته عن ذلك وانبته قائلة : هم في جوارنا واسرى بيدك فأي فخر في قتلهم . دوّل على البحرين وخذ بثأر اخيك . اي جهز عليها مرة ثانية . واخوه كان قد قتل في وقعة سترة .

اثرت في سعيد شهامة اخته موزة تأثيراً حسناً فعاد الى البحرين . ولكنه سالم اهلها هذه المرة فعقد معاهدة مع اميرهم الشيخ سلمان الذي سلم الجزيرة سابقاً الى ابي سعيد دون قتال ، ومن شروطها ان يدفع اهل البحرين قسماً من الخراج الى حاكم مسقط فيطلق سراح المعتقلين عنده .

وبعد وفاة الشيخ سلمان الرجل المسالم تولى الحكم اخوه الشيخ عبدالله ، وهو الحاكم الثالث من آل خليفة في البحرين . وكان أرحمة لا

يزال حياً يرزق وخصماً لا يموت الا قتالا . لكن الزمان والكروب أوهت منه العظم وذهبت بالبصر . اما القلب الذي تعشق الاخطار في سبيل المجد فلم يعتره وهيٌ او نصب ، ولم يخمد فيه ذاك النور الذي لا يرى شرفاً في غير الشجاعة والثبات . قام أرحمة ومعه بعض قومه يعيد الكرة على البحرين ، ارحمة وحـــده هذه المرة لا حليف ولا شريك له . فدخل القطيف راكباً سفينته المشهورة «غطروشة» فجرّد عليه الشيخ عبدالله السفن وقد شحنها بالرجال وخرج يقودها بنفسه .

احاطوا بارحمة البطل الضرير في ميناء القطيف ، فأمر بنشر الشراع وطلب ميداناً متسعاً للقتال . فاجيب الى طلبه . أفسحوا لغطروشة فخرجت الى عرض البحر ، ثم انقضوا عليها من كل جانب . وكان ارحمه وهو جالس عند خزانة السفينة ومعه ابن له صغير الى جنبه وعبده طرّار واقف فوق رأسه يسأل عن السفن الهاجمة عليه وعن قوادها فيخبرونه فيقول : هذا لا يجرأ على مقابلتنا — هذه لا تلحقنا . ثم يصدر الاوامر للنوتية بينما رجاله يبادلون العدو اطلاق الرصاص . وعندما دنت سفينة الشيخ احمد بن سلمان من « غطروشة » اخبروه بها فقال : هذا يطابقنا لا محالة ، لان جنبه لا يلامس ناعمات الابدان . اي انه لم يتزوج .

بعد قتال بالرصاص شديد تلاصقت السفينتان ، فتجالد الفريقان ، واشتد الضرب بينهما والطعان ، بينما ارحمة الضرير يحارب بلسانه وجنانه ، فيحرض رجاله ، ويصدر اوامره ، ويسأل تارة ابنه ، وطوراً يستخبر عبده طراراً .

— اين صاروا يا ولَيْد .

— عند الدقل [1]

— جنّبوا . جنّبوا ... والآن اين صاروا ؟

— صعدوا النيم [2]

سكت ارحمة سكوته الابدي ، اذ قرن كلمته الاخيرة بالعمل ، فاخذ ابنه ووضعه في حجره ، وعمد الى نار فالقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته . « بيدي لا بيد عمرو » . فدوى دويٌ غرقت فيه اصوات البنادق كلها وضحك الزبد المخضب بالدماء فوق عرشة الغطروشة .

تسمى هذه الوقعة في تاريخ البحرين « ذبحة أرحمة الجلاهمة » . قل هي مجده وتخليده . رحم الله كل من مات بطلاً في ساحة الوغى .

كان لارحمة ابن اخر اسمه بشر حاول الاخذ بثأر ابيه فراح الى صاحب مسقط السيد سعيد يستنجده على آل خليفة . وبما انهم كانوا قد امتنعوا عن دفع الخراج جاء سعيد ، اكراماً لبشر ابن أرحمة ، يعلمهم حفظ العهود . فخرج له الشيخ عبدالله بجيشه وكسره في اول وقعة وقتل من رجاله ثلاثة الاف .

عجايب يا بني عتبه عجايب ثلاثة الاف ما فيهم شايب

وقد حارب في هذه الوقعة مع آل خليفه مزيد بن هذال وبعض قومه العمارات [3] .

---

(١) الدقل : الصاري .

(٢) النيم سطح مؤخر السفينة .

(٣) لا يزال بنو هذال وشيخهم اليوم فهدبك مؤمرين على هذا الفخذ من عنزى

اخذت نشوة النصر مأخذاً من الشيخ عبدالله فحببت اليه الفتح والاستعمار . وكان قد تجدد بينه وبين امير نجد الخلاف فجهز جيشاً بحرياً وسار به الى دارين ففتحها ، ثم الى تاروت فاستولى عليها ، ثم الى سيهات في القطيف فحاصرها . فجاءت جيوش نجد توقفه في فتوحاته ، وقامت تساعدهم الفتنة في بيته . بل افقدته تلك الفتنة ما كان قد استولى عليه في القطيف .

ان السبب في مثل هذه الفتن المألوفة في بيوت امراء العرب هو غالباً تعدد الزوجات الذي ينشأ عنه ضغائن بين الاشقاء ، ومنافسات بين الامهات خصوصاً اذا كن من قبائل مختلفة .

كان للشيخ عبدالله عشرة اولاد منهم ثلاثة امهم من آل بني علي ، العشيرة التي مرّ ذكرها في الكلام على اهل الزبارة . فخرجوا على ابيهم يطالبون بالامارة وقصدوا الى الحوَيلة [1] يستنجدون اخوالهم فيها . فارسل الاب عليهم جيشاً بقيادة حفيد اخيه الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان فهاجمهم في الحوَيلة وهزمهم في الوقعة الاولى ، فتابوا وقالوا لابيهم ، اننا من الطائعين ، فعفا عنهم واذن لهم بالرجوع الى البحرين .

ولكن روح الفتنة التي خرجت منهم حلت بالرجل الذي حمل عليهم باسم ابيهم وظهرت قرونها بعد ثماني سنوات من وقعة الحوَيلة ذلك ان الشيخ محمد ، حفيد الرجل المسالم الشيخ سلمان ، قام على الشيخ

تابع شرح صفحة ٢٦٦

الذي يسمى العمارات . وهم من عشائر الشمال يقيمون في ارض عند وادي حوران بين سوريا والعراق .

(١) الحويلة قرية في الطرف الشمالي من قطر .

عبدالله كأن يتقاضاه اجرة تأديب اولاده ، فحاصره في المحرّق . وكان ابنا اخيه سلمان الساكنان يومئذ في الرفاع يميلان الى عمهما وهو يثق بهما . فاستنصرهما على ابن اخيهما الثائر عليه ، وجهز لكل منهما جيشاً كبيراً . فاحتربوا في وقعتين فاندحر في الثانية الشيخ محمد بن خليفة وبعد ان وكل اخاه الشيخ علياً بان يرعى الفتنة سراً راح يستنجد الاعداء على الاقرباء .

سافر اولاً الى نجد فصده اميرها ، فعاد الى قطر وارسل الى آل ابراهيم الذين كانوا يومئذ في جزيرة قيس من اعمال فارس يدعوهم لقتال اعدائهم السابقين حكام البحرين . فلبوا الدعوة مسرعين ومعهم الجلاهمة يرئسهم بشر بن أرحمة. وكان الشيخ محمد في قطَر والشيخ علي في البحرين يتعاونان في اضرام نار الفتنة وتجهيز الجيوش لها .

أزف يوم القتال ، فخرج الشيخ علي بجيش على الشيخ عبدالله فكسره وتقدم الى الرفاع فاستولى عليها . ثم جاء الشيخ محمد بجيشه فزحف على المنامة ودخلها منتصراً. وكان الشيخ عبدالله في المحرّق فعبر اليها ووقع بينه وبين الثائرين قتال كان عليه وبالاً . فلجأ وبعض رجاله الى القلعة فتحصنوا فيها ، وما كان الحصن حصيناً . فرّ الشيخ عبدالله من القلعة هارباً الى بلاد فارس ، ومنها جاء الى الكويت يستنجد حاكمها فلم ينجده : فسار منها الى نجد وكان نصيبه هناك الفشل ايضاً ، فسافر بعدئذ الى مسقط فمرض فيها ، ومات بعد ايام حزيناً طريداً .

حكم الشيخ عبدالله بن احمد بن محمد بن خليفة في البحرين اثنتين وعشرين سنة ، قضى جلها في قمع الفتن ، وفي ما عقم من الحروب . وخلفه محمد الثائر ، الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان ، الذي كان السبب

في انقسام آل خليفة الى حزبين حزب آل عبدالله وحزب آل سلمان . وهذا الشقاق بما نشأ عنه من الفتن والحروب أدى الى تدخل الانكليز فتح الثلمة التي يتعشقها « سفين » السياسة . سأقص قصة الانكليز في حينها ومكانها .

اما الآن فالحلقة التي نحن فيها من هذا التاريخ تتعلق بالشيخ محمد ابن خليفة آل سلمان . وقد علم القارىء مما تقدم من سيرته انه كان شجاعاً عزوماً مقداماً ، ولكنه لم يعلم بانه كان ذا بداهة عجيبة تدنو من الرؤيا فتمكنه من تفسير الاحلام ، والتنبؤ بما تخبئه الايام . اما في السياسة فقد كانت الحرباء مثاله الاعلى . ولا غرو ، فالدولة العثمانية كانت قد بدأت ترمق الكويت والاحساء والبحرين بنظر الام الرؤوم ، وكانت الدولة الايرانيــــة لا تزال تحلم برجوع ابنتها الضالة فترأم حبل سيادتها في الخليج ، وكان الانكليز ، بعد ان ثبتت قدمهم في بوشهر ، يسيرون في المضيق بين الدولتين الى مقاصدهم الكريمـــة . فهل يلام الشيخ محمد اذا قـــام بينهم كالبهلول يدهشهم تارة ، وطوراً يضحكهم ، ولا يرضي باطناً احداً منهم . قيل انه كان ينشر في القلعة علمين ، علماً عثمانياً فوق البرج الغربي منها وعلماً ايرانياً فوق الـبرج الشرقي ، حتى اذا حاولت احدى الدولتين التحكم باموره ادعى النسبة الى الاخرى . ولكن الانكليز ادركوا سر هذه السياسة وعلموا ان في العرب انفسهم من لا يسره نجاحها .

تولى الشيخ محمد الحكم سنة ١٢٥٨ هـ ١٨٤٢ م فحكم مطمئن البال ست سنوات لم يخرج عليه اثناءها احد من اعدائه . لكن يظهر ان ابناء سلفه الشيخ عبدالله الذين هربوا بعد سقوط ابيهم الى الدمام في القطيف كانوا يتأهبون لذلك . فقـــد كان في القطيف يومئذ آل ابن

علي وزعيمهم عيسى بن طريف الطـــامع بملك البحرين . فاتحد وآل عبدالله وجاؤوا الى قطر يشهرون الحرب على الشيـخ محمد . فبعث اخاه علياً على رأس جيش كبير نازلهم في أم سوية فقُتل في الوقعـــة عيسى بن طريف وقفل الشيخ مبارك بن عبدالله واخوانه هاربين الى الدمّام ... – يلزمنـــا يا اولاد بوريي حليف اخر ... – دونك يا مبارك وابن سعود .

وكان امير نجد يومئذ فيصل بن تركي الذي نهض للحرب يسترجع ملك اجداده . فأجاب طلبتهم بأن بعث يمدهم بجيش في البحر وسار يقود بنفسه جيشا برياً . وعندما ابحر آل عبدالله وانصارهم الى البحرين كان الشيخ محمد قد حشد الجيوش براً وبحراً لمقاومتهم . فغلبهم ثانية في وقعة بحرية قتل فيها الشيخ مبارك وابن عدو آل خليفة الالد بشر ابن أرحمة .ثم حاول آل عبدالله ثالثة ان يأخذوا بثار ابيهم فلم يفلحوا فبعد ان حاصرهم الشيخ علي اخو الشيخ محمد في الدمّـــام احدعشر شهراً واضعف شوكتهم لجأوا الى ابن سعود ليكون هذه المرة وساطة الصلح بينهم وبين ابن عمهم ، فقام الامير فيصل بهذه المهمة المبرورة وكان من المفلحين . فعاد آل عبدالله الى البحرين فعفا الشيخ محمد عنهم واكرمهم غاية الاكرام .

ومع ذلك لم يصف الجو للشيخ محمد . فلم يكد يخمد نار الفتنة في القطيف حتى اشتعلت في قطر التي كانت يومئذ تابعة للبحرين ، فقـام اهلها وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن ثاني يخلعون نير الطاعة ويهددون آل خليفة بابن سعود .

فارسل الشيخ محمد اخاه علياً ليؤدب العصاة . فوصل الشيخ علي بجيشه الى الدَوحة عاصمة قطر ، ودخلها بغتة ، فاعمل في اهلها السيف

ثم دمرها تدميراً. جاء بعد ذلك الشيخ قاسم الى البحرين يلتمس العفو فالقاه الشيخ محمد في السجن ، فهاجت لذلك قبائل قطر باسرهـا وفي مقدمتهم عرب النعيم وجاؤوا باسطول من السفن يهاجمون البحرين فلما وصلوا اليها وجدوا جيشاً في البحر مستعداً للقتال ، فحدث في مكان اسمه دامسة معركة شديدة ، تلاصقت فيها السفن فشبكت بكلاليب الحديد ، وتجالد الفريقان فاحمر وجه الماء من دم القتلى وكان الفوز للبحارنة.

وكانت وقعة دامسة هذه (١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م) السبب في تدخل الانكليز بشؤون البحرين .

لست ممـن يشكّون في ان الانكليز يبغون السلم ويسعون في توطيد الامن في الخليج العجمي . بـل هم يبغون السلم ويسعون في توطيده في كل مكان يتخذونه طريقاً لتجارتهم وسبيلاً لتأييد سياستهم في الهند . وقد بان للقارىء في ما سردته من تاريخ البحرين ان الخليج ، وهو اهم هذه الطرق ، كان دائماً مسرحاً للفتن والحروب التي يسببهـا حب السيادة والاستعمار . جـاء الانكليز بعد اهل البرتقال وقصدهم الاستيلاء عليه ، والمحافظة فيه على الامن والسلامة . فبسطوا شيئاً من سيادتهم ونفوذهم على بعض الجزر والاساكل على الساحل العجمي ، منها بوشهر التي هي اليوم [1] مركز الحاكم العام .

وراحوا ينشدون الامن والسلام — والسيادة طبعاً — في الجهـة العربية منه . نريد الخليج طريقاً آمنة للتجارة ايام السلم ، ونريده ايام الحرب وهو مفتاح الهند بيدنا وحدنا انما هذه هي غاية الانكليز الاولى والاخيرة . ولا ريب بذلك . اما الوسائل التي اتخذوها لتحقيق هذه الغاية والسياسة التي انتهجوها لتعزيز سيادتهم في الخليـج ، فتلك قصة

---

(١) سنة ١٩٢٢ .

اخرى لا احرم القارىء طرفاً منها .

قلت ان الشيخ محمد بن خليفة كان شاذاً في بداهته الى درجة تصبح البداهة فيها ضرباً من الرؤيا . ولكنه لم ير شيئاً وأسفاه مما كنّته الاقدار في تقرب الانكليز منه . جاءه الوكيل السياسي من بوشهر يخطب وده ويدعوه لعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده ومساعدة بريطانيا (١) فمن يرفض هاتين النعمتين؟ وكان الشيخ محمد كما اوضحت محاطاً دائماً بالاعداء من القبائل ومن آل بيته ، تزعزع حكمه الفتن والحروب . فرأى الحكمة والمصلحة في عقد المعاهدة ، وان كان من شروطها ان يتنازل حاكم البحرين عن حقوقه في تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية . فقد تعهدت بريطانيا في مقابلة ذلك ان ترد عن البحرين كل غارة بحرية . هذه خلاصة المعاهدة او الاتفاق.

فلما ثار اهل قطر على حكومة البحرين وجاؤوا يهجمون على الجزيرة خشي الشيخ محمد من استيلائهم عليها بينما هو يفاوض الوكيل السياسي

(١) حدثني احد افاضل البحرين قال : كان للبحرين اسطول شراعي كبير مسلح بالمدافع والذخيرة استفحل امره . فاستولى حكام الجزيرة على قطر والقطيف فخشي الانكليز عاقبة ذلك لان مصلحتهم تقضي بان تبقى بلدان الخليج متنافرة متشاقة لكل منها امير مستقل فاخطروا امراء البحرين بان القتال في البحر ممنوع وان لبريطانيا حقاً بمنعه تعترف لها به الدول الكبرى . فلا يجوز ان يخرج اسطولكم الى عرض البحر واذا خرج فالاسطول الانكليزي يقوم بواجبه . فاحتج الشيوخ الامراء ان بلادهم جزر مفتوحة ثغورها لا حصن لها الا الاسطول . فان لم ندفع به الاعداء ملكوا بلادنا ورقابنا . واذا لم نهاجم هوجمنا . فاجاب الانكليز اذا كان الامر كذلك فان حكومة بريطانيا ، اذا امتنعتم عن الهجوم البحري ، تتعهد برد الاعداء عن بلادكم .

في بوشهر [1] وينتظر النجدة منه . فكانت وقعة دامسة وكانت فاتحة المحنة .

ركب الوكيل السياسي مركباً حربياً وجاء يحتج على الشيخ محمد بانه خرق المعاهدة بينه وبين بريطانيا . ولكن الشيخ محمداً وكل اخاه علياً بالامر وسافر الى قطر قبل ان يصل الوكيل الى البحرين . فعد الوكيل ذلك اعترافاً منه بنكث العهد وفراراً من التبعة والجزاء فامر باطلاق مدافع البارجة على القلعة التي كانت تزدهي بعلمي تركيا وايران . ثم طلب من الشيخ علي ان يتولى الحكم بدل اخيه الذي سقطت امارته بخرقه المعاهدة. قبل الشيخ علي وكان من قبوله الشقاق بينه وبين اخيه. فقد اشار الى ذلك ابن اخيه شاعر البحرين الشيخ ابراهيم في القصيدة التي يرثي بها والده حيث قال :

فنازعك الشقيق وكان قدماً   حسامك والامور لها انتزاع
واغري الدهر بينكما وهاجت   على الافساد بينكما الرعاع

كان الشقيقان متحابين يخلص احدهما للآخر ، ولم يبد في خلال ثلاثين سنة التي فيها حاربا واداروا الشؤون معاً اقل ميل في علي الى منازعة محمد الحكم والسيادة . كانا والحق يقال مثال الوداد والوفاء حتى مجيء الوكيل السياسي من بوشهر . فكان الاخلق به ان يكتفي بما فرضه على البحرين من المال ، اي مئة الف روبية ، تعويضاً وتأديباً ، ولا يزرع في سياسة البلاد الداخلية تلك البذرة التي تأصلت في البيت المالك ولا تزال تنتج الفتنة والشقاق .

بعد ان تولى الشيخ علي الحكم سافر اخوه الشيخ محمد الى

---

(١) بوشهر هي على الشاطىء الفارسي وتبعد نحو مئة وخمسين ميلا عن البحرين شرقاً بشمال .

الكويت فتدخل ال الصباح يصلحون بين الشقيقين . فكتب الحاكم يومئذ الشيخ عبدالله الى الشيخ علي يسأله ان يرجع الامر الى ما كان عليه ، فقبل الشيخ علي بذلك . فجاء الشيخ محمد يصحبه حاكم الكويت واخوه الى البحرين ولكنهم علموا قبل ان ينزلوا الى الجزيرة بان الشيخ علياً عدل عن رأيه واصرّ على امره. ولا شك ان اليد التي كانت تؤيده هي اليد التي اقامته حاكماً .

لا يحكم الصياد اشباكه الا اذا عكر بطن الغدير

عاد الشيخ محمد، الذي لم يُقهر مرة في حياته ، الى ما فيه من قوة ودهاء فنزل في دارين وشرع يتأهب هناك للقتال . فحشد جيشاً من بني هاجر واعلن الحرب على اخيه ، فخرج له الشيخ علي بجيشه فاقتتلوا قتالاً شديداً ذُبح فيه الشيخ علي وتفرق جيشه . فعاد الشيخ محمد الى الحكم الذي ما زالت الفتنة تشتد فيه والمحن تزداد يوماً فيوماً .

كان ابناء الشيخ عبدالله من الذين نصروا الشيخ محمد على اخيه ، وهم مسرورون بما حدث بين الاخوين المغتصبين الحكم من ابيهم . ثم بادروا الى الانتفاع بما اسلفوه من مساعدة فادعوا انهم كانوا السبب في انتصار الشيخ محمد وقاموا يناهضونه . ثم قبضوا عليه فسجنوه في القلعة التي كان يرفع فوقها العلمين التركي والايراني . وقد قال لهم الشيخ محمد عندما اعتقلوه وكان في نبوءته صادقاً لن يطول حكمكم اكثر من ثلاثة اشهر .

وكان الامر كذلك ، اذ قبل ان يتم الشهر الثالث جاء الوكيل السياسي من بوشهر في مركبه الحربي وتولى امور البحرين المضطربة . « فاستشار » الاهالي ، بعد ان اطلق بضعة مدافع على سراي المنامة ،

في من يختارون حاكماً عليهم فاجمع رأيهم على الشيخ عيسى بن الشيخ علي الذي قتل في الحرب الاخيرة . ثم طرد من البحرين بني هاجر وهم اتباع آل عبدالله ، وأخرج الشيخ محمد بن خليفة من القلعة فاصطحبه ومحمداً بن عبدالله في البارجة ، فانزلا في جزيرة ثم نقل محمد بن خليفة من تلك الجزيرة الى بمباي ، ثم الى عدن ، فاقام فيها عدة سنين اسيراً . بعد ذلك شفع فيه السلطان عبد الحميد الى الحكومة البريطانية فاذنت له بالسفر الى مكة ولكنه لم ينعم فيها ، فقد مات هناك سنة ١٣٠٧ هـ كما مات الشيخ عبدالله في مسقط حزيناً طريداً .

الشيخ عيسى والانكليز

الطريقة المثلى في التاريخ – الشيخ عيسى في نظر السجاع – في نظر المؤرخ – سجاياه – كرمه – وفاؤه – اخلاصه للانكليز – محافظته على القديم – مقاصد الانكليز الخفية – ثبات الشيخ عيسى على العهود مدحت باشا والي بغداد يعرض عليه مساعـدة الدولة – اعتراف الانكليز باستقلال البحرين – مساعي الانكليز في تقويض الاستقلال – الحوادث عـدوة العهود – ثلاث حوادث خطيرة – وكالة سياسية بريطانيـة في البحرين – حرق الاسطول – عزل الشيخ عيسى .

عندما قُتل الشيخ علي آل سلمان آل خليفة ، كما ذكر في الفصل السابق ، سافر ابنه الشاب الشيخ عيسى مع اخوته وبني عمه الى قطَر فنزلوا على قبيلة النعيم فيها . وعندما استفتى الوكيل السياسي البريطاني اهل البحرين بعدئذ في حاكمها اجمع رأيهم على الشيخ عيسى[1] فكتب اليه الوكيل يخبره بذلك ويسأله ان يعود . فعاد بمن كان معـه من عشيرته وقبيلة النعيّم ونزلوا في المحرق . ثم نُصب حاكماً على البحرين في آخر شعبان سنة ١٢٨٦ ﻫ (١٨٧٠ م) وهو في الواحد والعشرين من سنه[2] فعاد الحكم الى آل سلمان وكانت فيه خاتمة الفتن والحروب

---

(١) هو عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن احمد الفاتـح بن محمد ، تاجر اللؤلؤ ، ابن خليفة الذي نزح من الافلاج بنجد ونزل في الكويت . وآل خليفة من بني عتبة وهي فصيلة من جميلة وجميلة فخذ من عنزى تمت الى بني اسد فربيعة فعدنان .

(٢) ولد الشيخ عيسى في محرم سنة ١٢٦٥ ﻫ وامه ابنة عيسى بن طريف آل ابن علي الذي خرج على الشيخ محمد عم الشيخ عيسى لما كان حاكماً .

الاهلية .

قد انتهجت في كتابة هذه النبذة ماقد يكون الطريقة المثلى في التاريخ . فغربلت الحوادث ، واخترت منها الاعم الاهم ، وعلقت عليهـــا في بعض المواضع بالايجاز الذي يوجبه المقـام ، وافضت ببعض المواقـع تتميماً للصورة الذهنية ، صورة الزمان والمكان والاحوال ، واجتنبت اولا واخراً الاطراء والاطناب ، فوصفت الرجال بما تمليه اعمالهم على المؤرخ .

ولو اني تمشيت على اسلوب التاريخ الذي بين يـدي لكان ينبغي لي في الكلام على الشيخ عيسى بن علي ان اقـول انه « استلم زمـام الملك بيد الحزم والتدابير ، فدانت له القبائـــل والعربان ، ونشر رايات العدل والامـــان ، وقمع بسيفه البغـاة والعدوان ، وشاد بعلمه وحلمه وتقواه ركن الدين ، واظل باغصان فضله الارامل والمساكين ، فالقى السعد عصا تسياره بقصره ، وخصه بـين الانام بنصره . . » الخ .

ولكن التاريخ هو غير السجع . يجب ان يكون للتاريخ عينان وعقل ووجدان . ولا بأس اذا كان له شيء من البداهة والتصور . اما القلب فلا حاجة له فيه ، ولا يجوز . ان التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له . وهو الآن يشهد ويقول ان للبارجة البريطانية التي كانت في ثغر البحرين يوم استُفتي البحارنة ، يـــداً قوية في ذلك السعد الذي « القى عصا تسياره » في قصر الشيخ عيسى . ويقول ايضاً ان ملكه الذي استمر خمساً وخمسين سنة كان اكثر عدلاً وسلمـاً واصلاحاً من ملك من تقدمه من اجداده . ولذلك اسباب منهـــا ما يتعلق بشخصه الكريم ، ومنها ما يتعلق بالانكليز ، ومنها مـــا هو ناشيء عن روح

الزمان في المدنية والعمران .

كان الشيخ عيسى كريماً جواداً ، فقد انعم على القبائل التي كانت معه في قطر بمبالغ جسيمة من الاموال يوم تقلد الامـارة . واعطى في جلسة واحدة اربعين رأساً من الخيل الاصائل ، ووصل بني عمـه بالطرف النفيسة والجواهر والبساتين . هي السجية الاولى التي كان يسترسل اليها ويعتمد على ما فيها من قوة البرهان والاقناع . حتى انه لم يكن ليرى غـير الكرم في بعض الاحايين سبيلاً الى توطيد الحكم وتعزيزه . وقلما استبقى من واردات البلاد شيئاً لنفسه . بل كان ينفقها كلها ، منذ كانت تعد بالالوف الى ان صارت تعـد بالملايين ، على وفود العرب ، وافراد عشيرته ، ثم في الاصلاحات العامة .

اعتمد الشيخ عيسى على الكرم وقلمـا اعتمد على غيره من مزايا النفس اريد بذلك انه لم يكن ليثق كثيراً بنفسه او يعتمد عليها . بل كان في جل اموره وكلاً . فاذا جرب انساناً ولو تجربة طفيفة اعتمد عليه ووثق به على الدوام ، فيصم اذنه عن كل ما فيه ذكر مساوئه او الاشارة اليها . وقد نشأ من هذا الضعف خلل في الاحكام وفي جباية الخراج .

اما العدل فقد كان غالباً معززاً في عهده . والحق يقال ان الشيخ عيسى نفسه لم يظلم انساناً ، عرضاً او عمداً ، في مدة حكم زاد عن نصف قرن . فقد كان دائماً يتحرى العدل والانصاف . ولكن ذلك لا ينفي ما كان يحدث من المظالم في دوائر احكام البحرين ، وان سدل عليها استار من التمويه ، لان الرجل كما قلت كان وكلاً فلا ينتبه الا بعد حين الى اعمال معتمديه .

ولم يكن الشيخ عيسى يميل الى الجديد والتجدد ، بل كان منذ حداثته محافظاً كل المحافظة على القديم ، فلا يغير شيئاً مما درج عليه ، ولا يرغب بشيء فيه بعض الخروج عن المألوف ، وظل كذلك حتى اصابه في آخر ايامه سهمٌ من روح الزمان وحاقت به سنن الرقي والعمران، فقام يساعد في انشاء المدارس ويأمر ببناء المحاجر والمرافق العامة في بلاده . وقد وضع اول حجر في اول مدرسة بيده ، وخصها براتب شهري بعد ان افتتح جريدة الاكتتاب بمبلغ وافر من المال .

ومن سجاياه الممتازة فضلاً عن الكرم وحب العدل انه كان صادقاً في ولائه وفياً . فقد احسن الظن بالسياسة البريطانية لاعتقاده ان بريطانيا لا تريد الا نشر تجارتها وتعزيزها . ولكنه جهل كما يجهل الكثيرون حتى من البريطانيين انفسهم ما كان منطوياً من مقاصد تلك السياسة [1] ، فأمن مناوأتها . اجل ان اخلاص الشيخ عيسى للانكليز خمساً وخمسين سنة ، للانكليز الذين ساعدوا في اقامته حاكماً ، ثم اذلوه وامتهنوا حرمة ملكه مراراً ، ثم اسقطوه عن العرش الذي رفعوه اليه — ان اخلاصه لهم ، وحسن ظنه بهم ، لمن الفضائل التي قلما نجدها في غير العرب من الشعوب الشرقية. وما كان ذلك الا لانهم ساعدوه في بداءة امره، ولانه عاهدهم على اشياء منها الاعتراف بالاتفاق السابق بينهم وبين عمه الشيخ محمد ، ذلك الاتفاق الذي قضى على

(١) حدثني موظف سابق في الوكالة السياسية البريطانية بالبحرين قال : كان يجيئنا ويخرج من عندنا كثير من الرسائل والبلاغات السرية . ان في دار الوكالة منها ما يملأ بضعة صناديق ويدهش فحواها كثيرين حتى من رجال الحكومة بلندن .

اسطول البحرين وجعل البلاد متكلة على بريطانيـا في الدفاع عن نفسها .

ومع ذلك لم يحنث الشيـخ عيسى بعهده ، ولا عقد اتفاقاً سرياً مع دولة اخرى من الدول . كتب اليه مدحت باشا عندمـا كان والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة بعد اتفاق ودي بينه وبينها ، فدفع الكتاب الى اصدقائه البريطانيين وكتب الى مدحت يقول : حسبي بريطانيا صديقة وحليفة . وقد فاوضته كذلك الحكومة الالمانيـة بوساطة معتمدها التجاري في البحرين فكان جوابه : لا اقدم على بريطانيا احداً ، ولا اعاون عليها عدواً . كثيراً ما اعترض رجاله على هـذه الثقة المطلقة ، وفيها التغاضي عن المساوىء فكان الشيخ يقول : ان بريطانيا اثبت الامم الاوروبية في المعاهـدات ، فقد اعترفت باستقلال بـلادي وحرية حكومتي ولا اريد اكثر من ذلك .

فهل قام الانكليز بما توجبه عليهم الصداقة بل العهود بينهم وبين شيوخ البحرين ؟ قد اعترفت انكلترا باستقلالهم فهل احترمت هذا الاستقلال ؟ سأتخذ من تاريخ البحرين عهد الشيخ عيسى بن علي ثلاث حوادث فيها الجواب على هذا السؤال وسأرويها بما يجيزه التدقيق من الايجاز .

اما اول هذه الحوادث فهو ضرب الزبارة سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣) التي كانت اول ما حكم آل خليفة في قطر عندمـــا جاؤوها من الكويت . وبعد ان نقلوا منها الى البحرين غدت عشاً للفتن والثورات . ذلك لان فيها الجلاهمة وآل ابن علي وبني هاجر النازعين دائماً الى الفتن طمعاً بالسيادة والحكم . فقاموا سنة ١٣١١ هـ ينفخون في نار الفتنة

فاضرمت في الزبارة ونواحيها ، وتأهب الثائرون للهجوم على الخليفيين في البحرين . فرأت الحكومة وجوب اخماد الفتنة ولم تر الى ذلك وسيلة غير الاسطول الذي كان لا يزال عندها قسم منه . فتشاور الشيوخ واقروا ذلك ، ثم بعثوا يعرضون الامر على الوكيل السياسي لبريطانيا في بوشهر ويستأذنوه . فحذرهم الوكيل من نقض الاتفاق . فطلبوا منه الدفاع عن البلاد ، ذلك الدفاع الذي يوجبه الاتفاق . فتعلل الوكيل اولاً ، ثم اشترط في مقابلة الدفاع شروطاً جديدة منها ان يكون لبريطانيا وكالة في البحرين ، ويكون للوكالة الحق بالمشارفة على قضايا الرعايا البريطانيين ، فماذا يفعل شيوخ آل خليفة في مثل هذا الموقف الحرج ؟ ويلهم من الثائرين الزاحفين على بلادهم ، وويلهم من البوارج البريطانية الراسية في الخليج اذا هم دافعوا عن البلاد . قبلوا بالشروط الجديدة ، فابحرت اذ ذاك البوارج الى الزبارة وفرقت بقنابلها الثائرين .

والحادثة الثانية حدثت بعد عشر سنين (سنة ١٩٠٣) وهي بنفسها طفيفة ، ولكنها خطيرة في نتائجها . خادم الماني اهان ابن اخي الشيخ عيسى فضربه ، فشكاه الخادم الى رئيسه ، فرفع الرئيس الدعوى الى الوكيل السياسي البريطاني [١] والى حكومة المانيا .

---

(١) ليس لبريطانيا قناصل في الخليج العجمي لان وظيفة القنصل تجارية . ومصالحها في الخليج تقتضي ان يكون لها هناك ممثلون سياسيون . وهولاء في المنصب اثنان الموظف السياسي Political Officer والوكيل السياسي Political Agent وفي الخليج وكيل سياسي اول مركزه في بوشهر يرجع اليه الوكلاء والموظفون السياسيون في الكويت والبحرين ولنجه وغيرها في الاساكل والجزر . اما مرجع الوكيل السياسي في بوشهر فهو حكومة الهند . وبما ان في البحرين

وبعد ايام اتفقت الحكومة المحلية والرئيس الالماني فاعتذرت عما فرط من ابن اخي الحاكم ، ودفعت الى الخادم ثلاثة الاف روبية . على ان هذه التسوية لم ترض ، على ما يظهر ، الوكيل السياسي في بوشهر وكان يومئذ السر برسي كوكس ، فجاء بمراكبه الحربية فرست في مياه البحرين وانزلت بعض جنودها الى البر . ثم عرض الوكيل لائحة بما تطلبه الحكومة البريطانية جزاء ضرب الالماني ، فنفذت مادة مادة . حُرق ما تبقى من سفن البحرين الحربية ، وحكم على ابن اخي الشيخ عيسى بالنفي خمس سنين قضاها في الهند وأُحيل الى الوكالة البريطانية بالبحرين النظر في دعاوي الاجانب كلها .

اما الحادث الثالث في سياسة الاستيلاء التدريجي فقد حدث في شهر ايار من سنة ١٩٢٣ . ولا بد قبل ان ارويه من تمهيد . في البحرين من التجار والعمال النجدي والايراني ، وقد علم القارىء ان الاثنين بموجب الاتفاق الاخير بين حكومة البحرين وحكومة بريطانيا به يعدّان من الاجانب ، فيجب ان تسمع دعاويهما في دار البليوس اي الوكيل السياسي البريطاني بالمنامة .

وهذا البليوس، ابتغاء حزب له من الايرانيين : سعى في عزل رئيس بلدية المنامة ونصب مكانه احد تجارهم محمد شريف خان بهدور الذي اشتهر بكرهه للعرب . وقد كان لهذا الرئيس صنيعة البليوس نفوذ في الاحكام يدنو من نفوذ الحكومة الوطنية ويتجاوزه في بعض الاحايين

....

تابع شرح صفحة ٢٨١

كثيرين من الهنود فقد اطلقوا على الوكيل السياسي فيها لقباً هندياً فهو يدعى هناك بليوس .

هذا هو التمهيد .

اما الحادث فهو انه في اوائل ايار من تلك السنة ُسرقت ساعة من بيت تاجر نجدي ، فأتهم بالسرقة رجل فارسي فقام بعض اهل بلاده يدافعون عنه ، فأدى ذلك الى خلاف بينهم وبين النجديين فتحزب الفريقان واشتعلت في القلوب الاحقاد الكامنة ، فافضى النزاع الى القتال . وكان محمد شريف رئيس البلدية يغري العجم في هذه الفتنة بقتل العرب .

ولما كان المتقاتلون كلهم من الاجانب فقد اكتفت الحكومة بحفظ الامن ما استطاعت. ولا اظن مما شاهدته في البحرين يوم كنت هناك انها كانت تستطيع كثيراً .

أبرق البلبوس خبر الفتنة الى الوكيل السياسي في بوشهر فجاء مسرعـــاً تصحبه بارجتان . وكان اول ما طلبه من الحكومة ان يعتزل الشيخ عيسى الحكم. فأبى الشيخ ، فأصر الوكيل ،وجمع فريقاً من الناس فاعلن فيهم عزل الشيخ عيسى وتولية ابنـــه الشيخ حمد مكانه . وهـذه البوارج في الثغر تلفت اليهـــا نظر الوطنيين المشاغبين .

ثم تبع العزل والنصب سلسلة من الاجراءات السياسية . فقد الغيت المحاكم الوطنيـة ، وعينت من وارادت الجمارك وغيرهـــا ، التي تحولت الى بنك بريطاني في المنامة ، رواتب شهرية للشيخ حمد ومن دونه من افراد الاسرة الحاكمة . وقد تأسس ديـــوان يدعى مركز الحكومة ليقوم مقام المحاكم الوطنية يحضره الشيخ حمد والبلبوس فينظران معاً في شؤون البلاد الداخلية .

هذه هي قصة البحرين والانكليز عهـــد الشيخ عيسى بن علي.

من حكومة مستقلة ذات اسطول حربي ، الى حكومة ولا اسطول ، الى حكومة يراقبها وكيل سياسي بريطـاني ، الى حكومة تشارك في ادارة شؤونها الداخلية والاجنبية حكومة بريطانيـا بوساطـة بليوسها ووكيلها في الخليج ، الى — والليالي بالحادثات حبالى ! .

النهضة الوطنية

شكل الحكومة الماضية - انقلاب ايار - احتجاج سلطان نجد - عزل رئيس البلدية - حكومة مزدوجة - نكبة النهضة الوطنية - من المسؤول؟ - حقيقتان جوهريتان في تاريخ البحرين - عبرة لامراء العرب - عبرة للانكليز والاوروبيين - حكومة انكلترا لاتعلم بكل مايجري على يد وكلائها - الوكيل المضر بالموكل والموكل من اجله - اولئك الذين لا يفهمون العرب ولا يحبونهم - حكومة الخليج وسلسلة الاحالات فيها - اوامر الحكومة في لندن وتنفيذها - مطالب اهل البحرين الوطنية - القوة لا تحترم غير القوة - الوكيل ينذر البحارنة - ما جنى على العرب غير انفسهم .

لم يكن للوكيل السياسي في البحرين قبل انقلاب ايار سنة ١٩٢٣ غير حق النظر في قضايا الاجانب . ولكنه كان يتدخل بشؤون البلاد على قدر ما تسمح به الاحوال وتمكنه منه السياسة التي تستمد قوتها من مصالح التبعات الاجنبية ومشاكلها ، ومن البوارج الراسية في الخليج . وكان هذا التدخل ينعم ويخشن ملمساً بالنسبة الى البلتيوس ، اي الوكيل ، وصفاته الشخصية . اذ ليس بين بريطانيا وحكومة البحرين معاهدة مسجلة ، بل هناك اتفاقات كما اسلفت ، تضمن للانكليز ما حازوه تدريجاً من نفوذ في البلاد ، وتضمن للبلاد حريتها واستقلالها .

سألت عن شكل الحكومة عندما كنت هناك فعلمت انها ثلاثة اشكال ، وطنية واجنبية ومختلطة . وكان سمو الشيخ عيسى يومئذ يدير الاولى ، والبليوس يدير الثانية ، ورئيس البلدية العجمي صاحب

الكلمة النافذة في الثالثة . وقد انشأت هذه الحكومة المثلثة الزوايا اربعة انواع من المحاكم : الاهليـــة ، اي الشرعية وهي التي تنظر وحدها في دعاوي الوطنين ، والاجنبية اي دار الوكالة البريطانية ، وهي تنظر وحدها في دعاوي الاجانب كلهم . والمختلطة اي التي كان رئيس البلدية يومئذ عضواً من اعضائها للنظر في الدعاوي بين الوطنيين والاجانب . ثم محكمة الغوص ولها قانون خاص يتساوى به الاجانب والوطنيون .

ولكن انقلاب ايار ذهب بالشكل والشعار . فعزل الشيخ عيسى كما قلت ، والغيت المحاكم الوطنية ، ثم عزل محمد شريـــف رئيس البلدية اجابة لطلب ابن سعود . اذ عندما وصلت اخبار الفتنة الى القصر بالرياض ، وعلم السلطان عبد العزيز بما كان لهذا الرجل في اثارتهـــا واغراء قومه بعرب نجد ، طلب من البريطانيين عزله فعزلوه حالا . ثم ادغمت المحاكم على انواعها بالمجلس الذي يشترك في رئاسته الشيخ حمد بن عيسى والبليوس ، فامست الحكومة المثلثة حكومة مزدوجـة ، وامسى الحاكم الوطني شريكاً للحاكم البريطاني .

ها قد وصلت الى معظم او كل الاسباب في ما سمعته من الشكوى والانين هناك واشرت اليه في مطلع هذا القسم . قلت ان في البحرين نهضة وطنية ، ولكنها سياسياً مقيدة . كانت قبل ايار قانطة فأمست بعده منكوبة . وكان السبب في القنوط السبب نفسه في النكبة ، لا يختلف الا في درجتي الشدة والمـــدى . ومن المسؤول ؟ اذا سألت البحارنة يجيبون : الانكليز واذا سألت الانكليز يجيبون : البحارنة .

هناك حقيقتان في تاريخ البحرين وسياستها الخارجية لا اظن احداً

من الفريقين ينكرهما. الحقيقة الاولى التي الفت اليها نظر البحارنة هي ان البحرين ، عندما كان لها اسطول حربي قبل عهد الشيخ عيسى بن علي ، كانت وجيرانها في احتراب دائم . وقد علمت مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها ان بلية العرب الاولى – كانت ولا تزال – هي النزوع في كل قبيلة ، بل في كل عشيرة ، الى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما توجبه القبيلة ، او يدعو اليه في بعض الاقطار المذهب الديني . لا يخضع العرب بعضهم لبعض الا كرهاً ، ثم ينزعون الى السيادة المستقلة اذا وجدوا الى ذلك سبيلًا . الجهل هو عدو التضامن ، والجهل المسلح هو عدو الرقي والعمران . فالسلاح بيد العرب اليوم ، اللهم اذا كانوا لا يخرجون على روح البداوة فيهم اولاً فيجمعون شملهم تحت علم واحد ، هو مضرّ بهم ، مضرّ جداً . لا يزال اكثر الامراء جاهلين ، او انهم من المحافظين على القديم البالي ، المقاومين لمبدأ الرقي والتجدد . فما الفائدة من القوة بايديهم ؟ ما الفائدة من اسطول يمكننا من الاستيلاء على قطر والقطيف والاحساء اذا كنا لا نوسع في الملك غير القوة الغاشمة ، الجاهلة ما في روح الزمان من اسباب الرقي والعمران ؟ يلزم البلاد العربية في هذا الزمان عشرون سنة في الاقل من السلم الدائم المستمر ، فتؤسس المدارس اثناءها تُفتح على الدوام – وتنفتح لابنائها الاذكياء ابواب العمل في الصناعة والزراعة وفي علوم الاقتصاد والادارة . هذي هي الحقيقة الاولى التي لا يجهلها ادباء وعقلاء البحرين .

اما الحقيقة الثانية التي الفت اليها نظر الانكليز فهي ان السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب .

هي تضر بمصالح بريطانيا ليس في البلاد العربيـة فقط بل في الشرق اجمع ، وتضر بالاسم البريطاني و كل مـا يرمز اليه من علم و كرم اخلاق وثقافة . السياسة الانكليزية في البلاد العربية تخبطت في مضيق جانب منه مظلم ، وجانب براق فيه وشل من الماء خدع المحبين ، يخفيه سراب خدع الاعداء. مثّل ذلك في البحرين ووعدُها الشيوخ بالدفاع عن البلاد اذا هم دمروا اسطولهم الحربي . على ان كل دفعة من ذاك الدفاع افقد البحرين كما بينت شيئاً من حريتها واستقلالها فقد كان الدفاع درجات الى الاستيلاء . فمن يثق بعد ذلـــك بوعود الانكليز وعهودهم ؟ اما اذا كانوا يبغون رفع العلم البريطاني فوق دار الحكم في الجزيرة فليس اسهل من ذلك . ان دولة من الدول الصغيرة التي لا تبلغ قوة اسطولها جزء صغير من قوة الاسطول البريطاني لتستطيع ذلك في يوم واحد. ولعمري ان مثل هذا الاحتلال خير من تلك السياسة التي هي كالبركان او الزلزال ،لا يظهر شيء من قصدها الحقيقي الا مرة كل خمس او عشر سنوات .

حدثني احد ادباء البحرين قال : اذا كان هناك فرق بين الاستعمار الانكليزي واستعمار الدول الاخرى فهو ان هذا كالجزار الذي يقتل شاته دفعة واحدة وذاك كمن يعذب الشاة وخزاً بالابر حتى الموت.

ولو لم اكن شاهدت وسمعت ثم تحققت مـا شاهدت وسمعت ، لكنت اقول ان محدثي يبالغ في ما يتكلم . ولكنها ويا للاسف الحقيقة بعينها لا مبالغة فيها .

اما ان سياسة بريطانيا في البحرين هي غير سياستها في الاقطار العربية الاخرى فمما لا شك فيه .وقد اوضحت مبدأها المرن في معالجـة

شؤونها الخارجية بحسب اختلاف المكان والزمان ، وشرحت ذاك المبدأ في سياستها العربية في كلامي على لحج والنواحي المحمية . وبما ان بريطانيا تدير هذه السياسة بوساطة وزارة الهند بلندن ، ثم بوساطة حكومة الهند في دَلهي ، فلا اظن انها عالمة كل العلم بما يحدثه من المشاكل وكلاؤها السياسيون في البلاد العربية ولا سيما في خليج فارس . فضلًا عن ان الوكيل يموه في بعض الاحايين دفاعاً عن عمله وحفظاً لمركزه . قد توخيت الصراحة التامة في ما اكتبه بهذا الشأن غيرة على الاسم البريطاني وحباً بتحسين وتعزيز العلائق الودية بين بريطانيا والبلاد العربية . ومما ينبغي ان اذكره أن كثيراً ما يسوّد صحيفتها احد ابنائها المقربين الذين لا يكونون في الشرق مؤمرين لولا نفوذ بعض اصدقائهم واقاربهم في الحكومة بلندن .

حدثني احد الموظفين البريطانيين في حكومة العراق عن ثورة ١٩٢٠ ، وعندما علم اني مسافر الى البحرين قال : ستجتمع هناك بواحد ممن وصفت . وكان قد افاض بالحديث في طبقة من الموظفين البريطانيين الذين يتخذون السر آرْنلد ولسون مثالاً في الحكم ، فيحذون حذوه في سياسته ، وليس لهم شيء من حسناته ، هم من الضباط الذين لا يصلحون لغير الخدمة العسكرية ، فلا يفهمون العرب ، ولا يحبونهم ، ولا يعطفون اقل العطف على قضيتهم .

جئت البحرين وما تمكنت من الاجتماع بالوكيل البريطاني فيها . ولكنني مما سمعته — وقد حدثني به الكبير والصغير والوطني والاجنبي — تحققت ما قاله زميله في حكومة العراق . فقد كان يقاوم كل فكرة اصلاح في الجزيرة غير التي يكون له فيها الكلمة الاولى

والاخيرة ، ولا يرى حقـــاً في غير القوة ، ولا عدلاً في غير العسف والاستبداد . فهل هي يا ترى سياسة دَوِنِن ستريت بلندن او سياسة بوشهر ؟ وما هي سيئات الوكيل وسيئات الاصيل ؟

ان البليوس مـــوظف له رئيس في بوشهر وللوكيل في بوشهر رئيس في دلهي ولولي الامر في دلهي رئيس في وزارة الهند بلنـــدن، ولرئيس تلك الدائرة مستشاران او وزيران في الوزارة الخارجيـــة ووزارة المستعمرات ، ولهاتين الوزارتين سياسة ثابتة قديـــة التقليد غامضة المقاصد في الشرق وفي البلاد العربية تتمشى دائماً عليها . اضف الى ذلك ان كثيراً ما تصدر الاوامر من احداهما مبنية على هـــذه الخطة لا على الجديد المهم من الاحوال في البلاد التي تختص بها ، فتجيء الاوامر وما فيها غير اليسير من الحكمة والعدل ، بل ما فيها احياناً شيء من الحكمة والعدل . فتصل الى رجل متصلف متعسف ، قصير النظر والاناة ، فينفذها بالحرف ويثير على امته غضب الاهالي وكوامن بغضائهم .

فلو كان الوكيل حصيفاً حكيماً ، مدركاً عوامـل التقدم في البلاد التي هو فيها ، عطوفاً ولو بعض العطف على مساعي الوطنيين في سبيلها ، لكان يطلع حكومته على حقيقة الحال ويسألها التبصر بهـــا والاسترشاد بشيء من حقائقها في تكييف الخطة السياسية وتلطيفها . ولو كان الوكيل رجلاً كبيراً ، مثله الاعلى العدل في كل الاحوال ، او لو كان في الاقل دمث الخلق ، لين الجانب ، محباً للعرب ، لكان يتمكن من خدمة بلاده بما فيه كذلك مصالح البلاد التي وكل بهـــا . ليس هذا بالامر المستحيل ، وليس مثله بالرجل النادر في الحكومة او في الامة البريطانية .

اعود الى الحادث الذي اوجب هذا البيان طلب اهـالي البحرين في السنين الاخيرة ثلاثة مطالب من الحكومة ، كلها ولا شك عادلة . فوقفت السياسة البريطانية تصدهم وتقاوم مسعاهم . طلبوا تشكيل جمعية تشريعية فاجاب الشيخ عيسى بالايجـاب وابى البليوس . طلبوا تنظيم بوليس وطني فرضي الشيخ عيسى ورفض البليوس . قـدموا لائحة اصلاح استحسنها الشيخ عيسى وعزم على تنفيذها فقامت عليـه وعلى الوطنيين قيامة الوكيل وبذل ما لديه من قوة لاحباطها .

سمعت شكاوي الوطنيين في البحرين ، وسمعتها في ما اتصل بي من اخبارها بعدئذ في الفريكة (١) ، فافسحت لها مجالاً في هـــذا الكتاب تستحقه وكتبت الى احد الافاضل هناك كتاباً اقتطف منه ما يلي :

« ان في الامر ما يضعف الامل بالانكليز . ولكن التاريخ لا ينبئنا بحادث من الحوادث كانت فيه احدى الامم القوية الاستعمارية متغلبة وحدها على امة اخرى صغيرة . بل نرى غالباً ان المغلوب يساعد على نفسه الغالب المنتصر . ماذا يحمله على ذلك ؟ الجهل والضعف والجبن والمصلحة الخاصة والطاعة العمياء — اما الطاعة العمياء فقد تفيد في سبيل وطنية عامة كبيرة كما لو كان العرب كلهم اليوم يطيعون ابن سعود مثلاً او الملك حسيناً او الامام يحيي بن حميد الدين ويمتثلون لاوامره . عندئذ يعز العرب ، عندئذ يصلح الاوروبيون سياستهم في الشرق ، وعندئذ ، اذا طغى في البحرين او في قطر آخر طاغ اجنبي او وطني تذكرونه بكلمة ذاك العربي الى الخليفة الثاني وتقومون امره بحد السيف .

« اما الآن فعليكم ان تقتبسـوا العلوم وتصبروا . واني اعتقد ان العلم بالاقتداء هو اسرع فعلاً واثبت . لذلك استحسن وجود الشركات

(١) بلد المؤلف في لبنان .

الاجنبية المجردة من كل صبغة سياسية في البلاد . فانها تعلمنا الاقتصاد والنظام والادارة من حيث لا ندري او نشاء . والعرب في حاجـــة شديدة اليها كلها ...

« مـــا جنى على العرب يا صديقي غير انفسهم . كنا وكنا وكنا – حديث مبتذل . يوم اقفلت المدارس في البلاد فعم الجهـــل وتوارثه الابناء كنا الجانين على انفسنا ، المقيدين بالجهل ارواحنـــا ، وبالخرافات عقولنا . واليوم نرى العلم والمال بيد الاوروبيين . ويوم كان الاثنان بيد العرب اخذهما الاوروبيون عنهم . فهلا اقتدينا بهـم في الماضي فنأخذ عنهم اليوم ثم نأخذ عنهم ونربي في الوقت نفسه روح القومية الشاملة فينا . لو كنت في سوريا وعرفت سبب بليتها لقلت : امـــا نحن فعرب من صميم العرب وديننا الاسلام . فـلا سبيل الى التفرقة قومية ً ومذهباً . ولو كان لكم عشر سنوات من التعليم المدني العام لفقتم غيركم في الربوع الساحلية . وهذا ما ابغيه لكم . التعليم في المدارس . التعليم بالاقتداء . الا ان العربي الكسلان اذا رأى ما هو مدفون في ارضه من الخيرات تتغير نفسيته وعقليته وكذلك اعصابه فلا تيأس يا صديقي ، ولا تظن ان الله يخص جيلاً واحداً من خلقـه بالكمالات كلها .

« واذا شئت ان احدثك كطبيعي لا كألهي اقول : ان الناموس الطبيعي الذي يعمل في عالمي الحيوان والنبات يعمل كذلك في الانسان وفي الاجتماع البشري . ومن النادر ان يرى الانسان نشوءاً تامـــا ، بداءة ونهاية ، في نوع واحد من النبات او جيل واحد من الناس . اما نحن الذين نقاسي ما نقاسيه في هذا الزمان فقسمتنا قسمة من يجيء في آخر دور النشوء او في اهم اطواره . فنرى بعين البصيرة نتيجة مـــا

مضى وما هو كائن فنتألم لانها دنية منا وقصية ، دنية لاننا نراهـا ، وقصية لان اليد لا تصل اليها . لنحمد الله اننا نراها في الاقـل فنقبل قسمتنا قانعين وعاملـــين في الوقت نفسه في السبيل الذي هو روح الناموس والتطور .

« تلذ لي محادثتك وانت من المفكرين . فكل مفكر يتـــألم ، ولكن ليس كل من يتألمون واحداً . منهم من يقتلهم الالم . ومنهم من يزيدهم قوة على العمل . الامة المتألمة اليائسة تموت ـ تساعد المتغلب عليها . والامة المتألمة الطويلة الامل الناهضة الثابتة في نهوضها ، انهـــا لتحيا ، وانها لتساعد ابناءها على المتغلبين . »